مُهتدِي الأبيض

نشأة الكون

الله - الكون - المجتمع



نشأة الكون

نشأة الكون

(الله – الكون – المجتمع)

مهتدي الأبيض

الطبعة الأولى ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

رقم الإيداع : 2017/ 11537

I.S.B.N: 978-977-488-529-7



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

نشأة الكون

(الله – الكون – المجتمع)

مهتدي الأبيض



دار اكتب للنشر والتوزيع

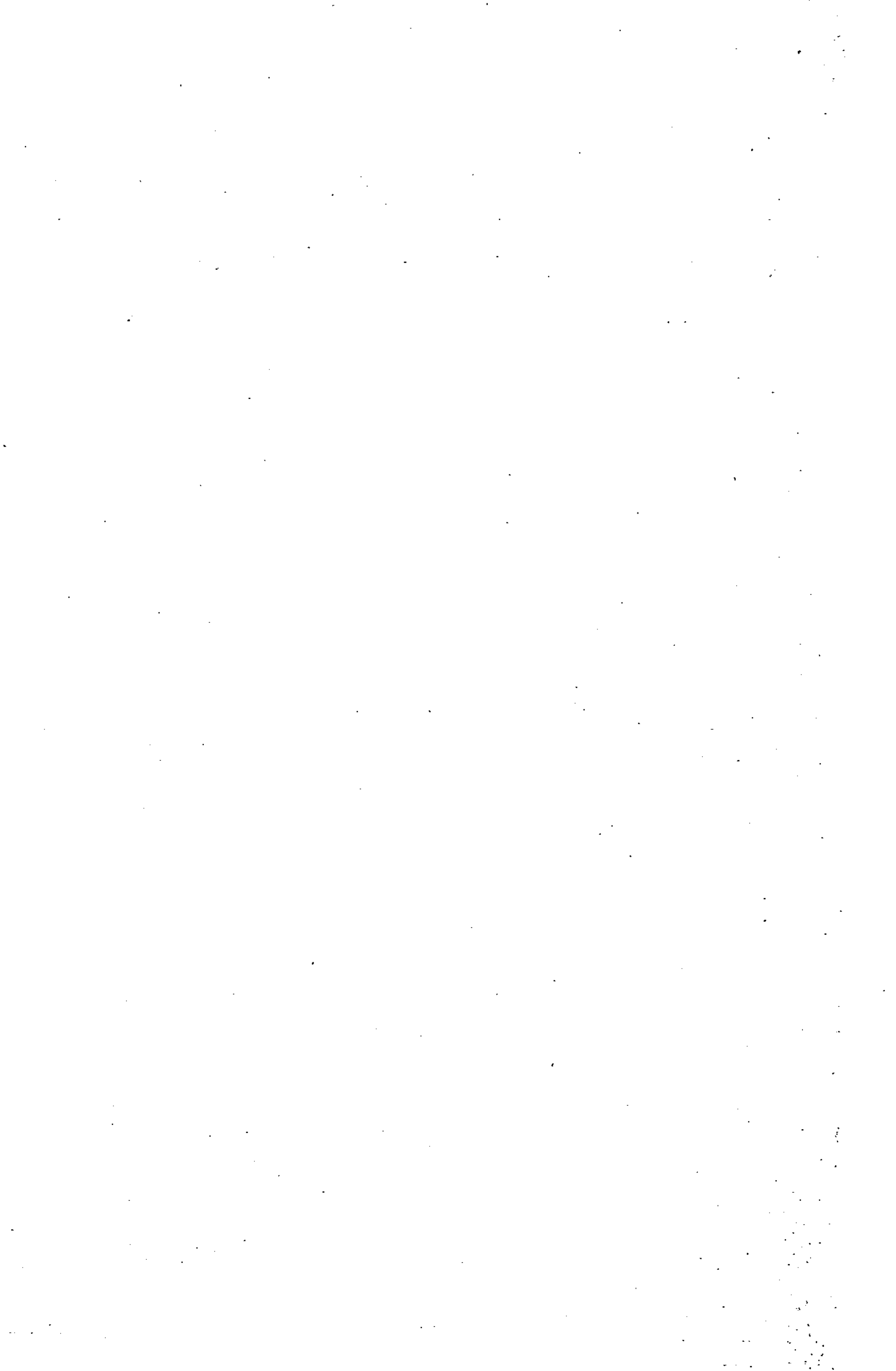


بسم الله الرحمن الرحيم

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

صدق الله العظيم

سورة فصلت، الآية 53



مقدّمة ضروريّة

قراءة وأفكار :

تتولّد الأفكار من خلال القراءات المتعدّدة والمعمّقة، فعندما تقرأ كثيراً لمختلف الكتب فسوف تتولّد لديك أفكار جديدة. أمّا الذي يقرأ حول موضوع معيّن فحسب فلا ينتظر أن تتولّد لديه أفكار جديدة(•).

فعلى الباحثين والمختصّين في اختصاص معيّن أن يقرءوا كتباً خارج اختصاصاتهم فسوف يجدوا ما يناسب حقلهم المعرفي، وتكامل الفكر يكمن في ذلك، ولا أقول هنا أتركوا اختصاصاتكم بل تمسّكوا بها فهي هويّتكم ولكنّ تطوير هذه الهويّة يتمّ عبر القراءات المتعدّدة، ومن المعلوم أنّ الأفراد في المجتمعات العربيّة يتدخلون في اختصاصات أخرى خارج حقلهم المعرفي والعملي، كأن يكونوا مثلا محلّلين سياسيّين وعلماء دين ومفكّرين في التّاريخ الإسلامي في آن واحد.

• – أتذكّر أنّني في يوم ما أنشأت صفحة على موقع التّواصل الاجتماعي الفيسبوك أسميتها (قراءة وأفكار) وكانت صورة الغلاف الخلفي لمجموعة كتب، في حينها وصلتني رسائل على الماسنجر من بعض الأشخاص يسألونني هل أنت تقرأ الأفكار؟ فأنا أقصد عندما تقرأ كتب مختلفة وكثيرة تتكوّن لديك أفكار، وذهن المجتمع يذهب إلى شيء آخر، هذا يدلّ على أنّ مجتمعنا العربي يفكّر بالرّوحانيات أكثر من أن يفكّر بالواقع والحداثة.

وهم في كلّ شيء يفهمون ويناقشون حتى هناك مثل يقول (سبع صنائع والبخت ضائع).

ونؤكّد أنّه لا يعني بالطّبع القول عدم جدوى الاختصاص، كما لا يعني الفلتان المعرفي الذي يتيح لأيّ كان أن يقول ما يشاء في أي موضوع كان، إذ لا علم من غير اختصاص. ولا حقل من غير قواعد أو ضوابط، وإنّما نقصده هو إعادة تعريف الحقل العلميّ بصورة تحرّره من النّظرة المغلقة والعقليّة المدرسيّة أو من المعياريّة الصّارمة والنخبويّة الثّقافيّة. وذلك بفتحه على سائر الحقول من جهة، وعلى الواقع اليوميّ والوجود المعاش من جهة أخرى، فالتجارب تشهد أنّ الانغلاق ضمن دائرة الاختصاص يؤدّي إلى الجمود والتحجّر بقدر ما ينتج الغفلة والجهل أو الوهم والاختزال. ولذا فإنّ التّجديد يقوم تحديداً على الانفتاح على المجالات والممارسات التي يستبعدها أهل الاختصاص[1].

فمشكلة الاتّجاه نحو الاختصاص فقط يضع حدوداً لكلّ باحث ويحصره في مجاله التخصصيّ.

أمّا التفكير الممكن فيتجنّب هذه المشكلة بل يدفع المثقّفين كافّة وحتى غير المثقّفين نحو التفكير والإبداع في أي مجال قد يلامسون به

---

1 – علي حرب، أصنام النظريّة وأطياف الحريّة (نقد بورديو وتشومسكي)، المركز الثّقافي العربيّ، المغرب، 2001، ص39.

الحقيقة من بعيد أو من قريب، وبذلك يدفن الحدود بين المجالات المختلفة في البحث والعلوم[1].

منذ أن كنت طفلاً كانت تراودني الكثير من الأسئلة عن الكون، أين تكمن حافة الأرض؟ وهل حافة الأرض هو جدار عازل؟ وماذا يكمن خلف الجدار؟ وكيف نصل إلى السماء؟ وكيف صارت السماء سقفا للأرض؟ وماذا هناك بعد السماء؟ ...إلخ، وهذه الأسئلة الفطريّة بقيت راسخة في لاشعوري إلى أن أصبحت أقرأ بكثرة وبهوس حول الفيزياء الكونيّة، وعندما أتابع تقريرا تشدّني الدّهشة حول طبيعة الكون وكيف يجري ويصيبني الذّهول كيف صُنع هذا الكون الموسّع اللاّنهائي المليء بالقوى والخفايا. كما أنّي أغوص في عمقه وأتساءل أين نحن وأين المجتمع من هذا الكون؟ نحن لا شيء في هذا الكون الكبير.

فلماذا تتصارع الدّول والمجتمعات؟ فبدلا من الصّراع عليها أن تحدّد مواقعها من هذا الكون. ومن المؤسف أنّ معرفة قوى الكون جعلت من الدّول الصّناعيّة تصنع قنابل ذريّة وهايدروجينيّة ونوويّة تهدّد بها بعضها البعض. إنّهم مجانيين فعلاً ومازلنا في زمن الوحشيّة والبربريّة لكن بشكل صناعي متطوّر.

---

1 – حسن عجمي، السوبر حداثة (علم الأفكار الممكنة)، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 2005، ص20.

جوهر النّظام :

النّظام جوهر الكون والطّبيعة والإنسان والمجتمع، فالكون والطّبيعة قائمان وفق نظام دقيق صارم لا يحيدان عنه بتاتاً. فالأجرام السّماويّة تتحرّك وفق نظام مبرمج يعود إلى مئات ملايين السنين. وما ينطبق على الأجرام السّماويّة كافّة ينطبق على المجموعة الشّمسيّة التي يشكّل كوكبنا جزءاً أسياسيّاً منها. فالمجموعة الشّمسيّة تتحرّك وتدور وفق برنامج محدّد لا تحيد عنه قيد أنملة.

تشكّل الكرة الأرضيّة درّة النّظام الشّمسيّ، وربّما درّة النّظام الكونيّ عامّة، نظراً لوجود حياة ذكيّة على سطحها يمثل الإنسان أعلى مراتبها.

أمّا الطّبيعة التي تدعم الحياة البشريّة وتتفاعل مع النّظام الشّمسي بصورة مباشرة، فتقوم على نظام شديد الدّقة لا يختلف بتاتاً عن النّظام الكونيّ العامّ. ولا غرابة في ذلك، فالطبيعة التي تؤثّر تأثيراً مباشراً على حياة الإنسان هي جزء لا يتجزّأ من النّظام الكونيّ الشّاسع وتخضع لقوانينه. ويشعر الإنسان بتأثير الطّبيعة نظراً لاتصالها به اتصالاً مباشراً وهي تقف وراء سبب الحياة الإنسانيّة.

فأشعّة الشّمس والهواء والماء- هذه العناصر التي لا تشكّل بحد ذاتها أهمّية- هي العناصر الأساسيّة التي بوجودها وتراتبيتها وتبدّلها

وفق نظام دقيق، هي على درجة كبيرة من الأهمّيّة في حياة الإنسان وتمسي من دونها الحياة الإنسانيّة مستحيلة.

إذن، يضبط النّظام حركة الكون والطّبيعة بصورة يمكن مراقبتها ودراستها والتنبؤ بمجراها. فالكون والطّبيعة قائمان وفق نظام دقيق يضبط حركتهما. ومن هذا المنطلق، يمكن دراسة الكون والطّبيعة والتخطيط للسّفر إليهما واكتشاف أسرارهما. فبدون نظام، لا يمكن دراسة الكون والطّبيعة بصورة فعّالة، لأنّ الدّراسة تفترض وجود هكذا نظام وإلاّ تعذّر القيام بمثل هذا النّشاط الفكريّ، وبالتالي تعذّر القيام برحلات فضائيّة. فالاكتشافات الفضائيّة لا يمكن أن تتمّ خارج نطاق وجود منظّم ومرتّب وفق قواعد يستطيع العقل البشريّ سبر أغوارها.

وما أن ننتقل للنّظر في جوهر الإنسان حتى تطالعنا صورة واضحة تعكسَ حقيقة أساسيّة ألا وهي أنّ الجسم البشريّ والعقل الإنسانيَ يقومان أيضاً على نظام شديد الدّقة لا يقلّ وضوحاً وبروزاً عن النّظام الذي يسّير الكون والطّبيعة. فالجسم البشريّ يعمل بنظام ودقّة وتوازن يحار المرء في تفسيره ويتفاعل مع الطّبيعة بصورة مباشرة بحيث يرتبط مصير الوجود الإنسانيّ بقيام أو عدم قيام هذا التّفاعل وتوافر هذا التوازن بين الجسد والطّبيعة. أمّا العقل البشريّ، الذي يكوّن البعد الأسمى للوجود الإنسانيّ، فهو يعمل وفق ضوابط وقواعد

منطقيّة تعمل بدورها وفق معايير منتظمة لا تحيد عنها ولا تتمكّن من العمل في بيئة ومحيط غير منظّم ومرتّب. والعقل البشريّ يعمل هكذا. لأنّ القوى العقليّة تعمل ضمن آفاق وأجواء تقوم على النّظام والانضباط. وإذا ما سلّطنا المجهر على المجتمع البشريّ فسنجد أنّه لا يقل نظاماً وانضباطاً عن الكون والطّبيعة وجسم الإنسان وعقله. فالمجتمع البشريّ يعمل وفق ضوابط وقواعد رغم عجز الإنسان عن إدراكها كافّة. فالتّوازن الشّديد الذي يسير دفّة النّظام القائم في المجتمعات البشريّة لا يمكن الإخلال به، وإلاّ تعرّض المجتمع لهزّات ومشاكل وصراعات. وما الجهود المبذولة في علم الاجتماع لدراسة المجتمعات البشريّة سوى محاولات جادّة لاكتشاف تلك القوانين والضّوابط التي تسيّر المجتمع. باختصار، يقوم الكون والطّبيعة والجسم والعقل البشريّ والمجتمعات البشريّة على نظام التّفاوت دقته. فالكون والطّبيعة والجسم البشريّ يعملون وفق نظام شديد الدّقة لا تحيد عنه أبداً. والعقل كذلك يعمل وفق ضوابط وقواعد تتحلّى بالمرونة وهذا من طبيعة العقل، والمجتمع الإنسانيّ يعمل وفق قواعد وقوانين قائمة على التوازن بين القوى التي تكّون المجتمع. وعلى الرّغم من التفاوت في الدّقة. يبقى النّظام محور الوجود الكونيّ والإنسانيّ والاجتماعيّ وجوهره(1).

1 – فضيل أبو النصر، الإنسان العالميّ (العولمة والعالميّة والنّظام العالميّ العادل)، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 2001، ص15-17.

تاريخ المماثلة الكونيّة:

آمن الإنسان البدائيّ بأنّ الظّواهر الكونيّة لها تأثير على الظّواهر الاجتماعيّة، ويعتبر هذا الإيمان هو أحد أسباب ظهور الدّين. لذلك تعدّدت الآلهة بتعدّد الظّواهر الكونيّة فنجد إله الشّمس وإله القمر وإله المطر وإله الربيع...إلخ. وكلّ هذه الآلهة عبدها البشر من أجل استمالتها لتخفيف تأثير الظّواهر الكونيّة القسريّة على البشر.

كما ظهر التنجيم أو علم الأبراج في المجتمع السّومريّ القديم وهو اعتقاد تأثير النجوم على الطّبيعة الإنسانيّة وما زال هذا العلم ساري المفعول إلى يومنا هذا في كلّ المجتمعات.

فضلاً عن أنّ فلاسفة اليونان قد اختلفوا في تفسير تأثير الظّواهر الكونيّة على المجتمع، فنجد في الفلسفة الرواقية قديماً أنّ حركة الفرد والمجتمع محدّدة مسبقاً في القوانين الكونيّة وهذا ما يسمى بالقدر، والذي يحصل للبشر من حوادث ومستجدّات هو من الضّرورات الكونيّة الشّاملة، وبالتالي فلا بدّ للفيلسوف أن يعرف القوانين الكونيّة وبعد أن يتمكّن من معرفتها يوجّه إرادته في اتّجاه الضّرورة، فتصبح إرادته جزءا من الإرادة الكونيّة العامّة، وتندمج ضمن النّاموس الطّبيعي العامّ، ويكون هذا الأخير منطبقاً تماماً على إرادته. فهو ليس

مقيّد بعد ذلك بقوانين الوجود، بل قوانين الوجود هي التي تسير وفق إرادته، وإرادته هي الإرادة الكونيّة الشّاملة واقعاً.

وهذه النّظرة إلى الكون وإن كانت تنطوي على بعض النّقاط الحسنة الدّقيقة، إلاّ أنّها لا تخرج من كونها فلسفة جبريّة، تسلب الإنسان إرادته وتدمجها في الإرادة العامّة والنّاموس الطّبيعي العامّ، كما أنّها تلغي الإرادة بشكل عامّ(1).

هذا وإنّ الدّيانات التوحيديّة اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام اختلفت حول ذلك أيضا باختلاف عقائدها، كما ظهر الاختلاف في الدّين الواحد باختلاف المذاهب، وهذا ما نلمسه في فلاسفة الإسلام الأوائل حول مسألة الجبريّة أو التفويض. فلو أخذنا فلسفة الفارابي نجدها مبنيّة على المماثلة، عالم الكون وعلى رأسه المبدأ الأول (الله) والمدينة الفاضلة وعلى رأسها النبيّ أو الرئيس الفيلسوف، وبالتالي فـــ(المدينة الفاضلة) عنده هي التي تحاكي في نظامها نظام الكون. يقول في هذا الصّدد(وكما أنّ العالم مبدأ ما أوّلاً، ثم مبدأ آخر على ترتيب (العقول السّماويّة، الملائكة) وموجودات عن تلك المبادئ (الأفلاك والأجرام السّماويّة) وموجودات أخرى تتلو تلك الموجودات على ترتيب (أشياء الطّبيعة على الأرض) إلى أن تنتهي إلى آخر الموجودات رتبة في الوجود (المادّة غير الشكليّة)، كذلك في جملة

---

1 – محمد مهدي الآصفي، حقيقة الحريّة، من دون مكان طبع وتاريخ، ص110-111.

ما تشتمل عليه الأمّة أو المدينة من مبدأ أوّل (الخليفة الرّئيس، الملك) ثمّ مبادئ أخرى تتلوه (الصّحابة، خاصّة الخاصّة) ومدينيّون آخرون يتلون تلك المبادئ (الخاصّة) وآخرون يتلون هؤلاء إلى أن ينتهي إلى آخر المدنيّين رتبة في المدينة والإنسانيّة (العامّة)، حتى يوجد فيما تشمل عليه المدينة نظائر ما تشتمل عليه جملة العالم، فتكون المدينة مرتبطة حينئذ أجزائها بعضها ببعض ومؤتلفة بعضها مع بعض ومرتّبة بتقديم وتأخير بعض، وتصير شبيهة بالموجودات الطّبيعيّة، ومراتبها شبيهة أيضاً بمراتب الموجودات التي تبتدئ من الأوّل وتنتهي إلى المادّة الأولى (الماء والهواء والنار والتراب) وارتباطاتها وائتلافها شبيه بارتباط الموجودات المختلفة بعضها ببعض. ومدبّر تلك المدينة شبيه بالسّبب الأوّل الذي به سائر الموجودات)(1). في حين أنّ ابن عربي يرى أنّ الإنسان مماثل لله ومماثل للعالم، لكنّ هذه المماثلة لا تنفي التغاير بين الله والإنسان من جهة، وبين الله والعالم من جهة أخرى، فضلاً عن التغاير بين الإنسان والعالم(2).

1 – محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي(محدداته وتجلياته)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010، ص355.

2 – نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، ط8، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ص234.

مماثلات اجتماعيّة أخرى :

إنّ التمثيل ثالث أنواع الأدوات العلميّة بعد الاستنباط والاستقراء، والتمثيل هو (أن ينتقل الذّهن من حكم أحد الشيئين إلى حكم الآخر لجهة مشتركة بينهما). وبعبارة أخرى هو (إثبات الحكم في جزء لثبوته في جزء آخر مشابه له).

إنّ التمثيل على بساطته من الأدلّة التي لا تفيد إلاّ الاحتمال. لأنّه لا يلزم تشابه شيئين في صفة واحدة فقط بل يجب أن يتشابها في عدّة أمور أو في جميع الوجوه. فإذا رأيت شخصاً يشبه شخصا آخر في طوله أو في ملامحه أو في بعض عاداته وكان أحدهما مجرماً فقطعاً ليس لك أن تحكم على الآخر بأنّه مجرم أيضاً لمجرّد المشابهة بينهما في بعض الصّفات أو الأفعال(1). وبالتّالي فإن هناك تماثل بين المجتمع والكون علماً وأنّ المجتمع جزء من الكون وبالتالي فلا بدّ أنّ هناك تشابه بين الكلّ وجزءه، وهذا لا يعني أنّه لا يوجد اختلافات بينهما، لذا جاء هذا الكتاب ليبحث في فصوله عن التّشابه بين الكون والمجتمع مع فارق الاختلاف بينهما. علماً وأنّ المماثلة بين الكون والمجتمع ليست أوّل مماثلة في علم الاجتماع بل سبقتها مماثلتين وهما: النظريّة الدّاروينيّة الاجتماعيّة والنظريّة البنائيّة الوظيفيّة.

1 – محمد رضا المظفر، المنطق، ج2، ط9، دار الغدير للطباعة والنشر، من دون مكان طبع، 1434ه، ص260–261.

الدّراوينيّة الاجتماعيّة :

جاءت هذه النّظريّة بعد أن أخذت نظريّة داروِن التطوريّة في الذّيوع والانتشار فقد انبرى علماء الاجتماع في مرحلة مبكّرة لدراسة المجتمع وفق نظريّة داروِن التطوريّة، وتميّزت الدّراوينيّة الاجتماعيّة بنوع من الوحدة والاتفاق.

واحتلت مكان الصّدراة بين المدارس العديدة التي تفرعت إليها النّظرية التطوريّة الرئيسيّة. ومن الجدير بالذّكر أنّ تشارلز دراون الذي ألّف (أصل الأنواع) في عام The Origin Species 1859 و(أصل الإنسان) Descent of Man 1871 والذي ابتكر النظريّة الحديثة في التطوّر البايولوجي، لم يكن داروِنياً اجتماعياً. فلم يناقش مشكلات الفلسفة الاجتماعيّة، كما كان يؤكّد دائماً على التناقض والاختلاف بين عمليّات التطوّر البايولوجيّ وعمليّات التطوّر الاجتماعيّ (1).

إلا أن أخذ بعض علماء الاجتماع يكتشفون المماثلة بين التطور الاجتماعي والتطور البايلولوجي الدراويني، ومن خلال ذلك الاكتشاف أسسوا المدرسة الداروينية الاجتماعية.

---

1 – نيقولا تيماشيف، نظريّة علم الاجتماع طبيعتها وتطوّرها، ترجمة: د. محمود عودة وآخرون، ط8، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص100.

وعلماء الدّاروينيّة الاجتماعيّة هم كلّ من والتر باجوت Bagehot (1826-1877)،لوفيدج جمبلوفتش Gumplowicz (1838-1909)،جوستاف راتسنهوفر Ratzenhofer (1842-1904)، ألبيون سمول Small (1854-1926)، وليم جرام سمنر Sumner (1840-1910)، وقد اختلفوا وقتئذ فيما بينهم في تفسير تطوّر المجتمع وقد قاد اختلافهم واستكشافهم لتطوّر المجتمع إلى أزقّة مسدودة.

البنائيّة الوظيفيّة :

تعدّ البنائيّة الوظيفيّة **Functional Structuralism** من أكثر النظريّات ذيوعاً وانتشاراً في علم الاجتماع المعاصر وبالأخصّ في الدّول المتقدّمة.

وهي بمثابة الاتّجاه الذي يسود أبحاث السّوسيولوجيا والعلوم الإنسانيّة منهجاً ونظريّة، فقد كانت حصيلة لجهود عدد من المفكّرين من أمثال الإيطاليّ فلفريدو باريتو **Pareto** (1849-1923)، والأمريكيّ روبرت ماكيفر **R. MacIver** (1882-1943) في السّوسيولوجيا وفي الانثروبولوجيا روبرت مالينوفسكي **R. Malinowski** (1889-1942) وراد كليف بروان **R.Brown** (1881-1955).

ولقد جاءت هذه الجهود متأثّرة بالعلوم الطّبيعيّة (لاسيّما منها علم الأحياء **Biology**) في اعتمادها الكبير على فكرة تشبيه أو مماثلة المجتمع بالكائن الحيّ (المماثلة العضويّة) وأوّل من أتى بهذه المماثلة هو هربرت سبنسر حيث شبّه المجتمع بالكائن الحيّ. وبغض النّظر عن الانتقادات الكثيرة التي تعرّضت لها (البنائيّة الوظيفيّة)، إلاّ أنّها تعدّ إطاراً تفسيرياً عند دراسة أي فعل اجتماعيّ (ظاهرة كان أم سلوكاً) (1).

---

1 – السيّد الحسني، نحو نظريّة اجتماعيّة نقديّة، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1985، ص118.

والوظيفة هي مفهوم مشتقّ من البايولوجيا (علم الحياة) يشير إلى أنّه كما توجد وظائف لابدّ لديمومة وحيويّة الكائن الحيّ، كوظيفة التنفّس أو الهضم أو التبوّل أو غيرها من الوظائف، كذلك توجد وظائف تسهم في تنظيم وبقاء المجتمع وديمومته، أي أنّ المجتمع يماثل الكائن العضويّ أو الحيّ.

فالمجتمع يتكوّن من عناصر مرتبطة فيما بينها بواسطة الوظائف التي تقوم بها لإشباع حاجات المجتمع الأساسيّة. وعلى أساس هذه الفكرة قامت المدرسة (البنائيّة الوظيفيّة) في العلوم الاجتماعيّة ومنها السّوسيولوجيا(1).

وأنا هنا أضع مماثلة أخرى من نوع جديد وهي المماثلة بين الكون والمجتمع، ولا يعني هذا أن أطبّق نفس منهاج العلوم الطّبيعيّة على المجتمع، بل من خلال اختصاصي كسوسيولوجيّ ودراستي للمجتمع ومن خلال قراءتي للفيزياء الكونيّة وجدت أنّ هناك تماثلا بين الكون والمجتمع من ناحية التطوّر والحركة والقوى التي تحكم الكون والمجتمع...إلخ، فضلاً عن أنّ هناك تماثلا بين الأشياء المرئيّة واللاّمرئية بين الكون والمجتمع. وقد جاء هذا الكتاب ليدرس بشيء من التفصيل هذه المماثلة ويوضّح للقارئ بأنّ الوجود يعمل وفق وتيرة واحدة إلى حدّ ما رغم وجود الاختلافات بين الموجودات.

---

1 – علي وتوت، منهج سوسيولوجيّا السّياسة، مادة تدرّس لمرحلة الماجستير في علم الاجتماع، كلية الآداب– جامعة القادسيّة، ص65.

الفصل الأول

أصل الفكرة وإشكاليّتها



إنّ الفكرة التي سأتبناها وسأحاول شرحها وإيضاحها بدقه في كتابي هذا ليست بجديدة فقد تطرّق لها علماء الاجتماع الأوائل، وهنا أنوّه إلى أنّ أغلب المفكّرين لم يأتوا بأفكار جديدة ولكن من خلال مطالعاهم المكثّفة وقراءاهم المعمّقة يتبنّون أفكار سابقة ويضيفون عليها إسهامات دقيقة أو إضافات كثيرة حتى تتناسب مع الواقع ومع ما يودّون تبليغه من أفكار وآراء. لذا نرى أنّ بعض النّاقدين عندما يوجّهون انتقادهم إلى كاتب معيّن أو مفكّر، يقولون أنّ فكرته قديمة وأنّ هناك من سبقه في طرحها. ولكن إعادة طرح الفكرة في أي علم من العلوم لا يكون عاده عبثيّا أو اعتباطيّا وإنّما يكون في إطار بحث عن إجابة أو حقيقة منقوصة لم يجدها طارح الفكرة الجديد في علم ونظريات من سبقه فلم يكتفي بما وُجد وناشد الأكثر، أو لعلّه أراد إعادة طرح الفكرة وربطها بالتغيرات الزمكانيّة التي تختلف حتما عن الظروف الاجتماعيّة والزمكانيّة التي تبلورت فيها سابقا، ولعلّ هذا

هو ما نوّد الوصول إليه من خلال طرحنا لفكرة طرحت في علم الاجتماع سابقا.

ساهمت عدّة عوامل في ظهور علم الاجتماع، ويمكننا حصرها في ثلاثة عوامل، العامل الأوّل هو ظهور الثّورة الصّناعيّة في أوروبا وما أحدثته تلك الثّورة من انقلاب اجتماعيّ في بنية المجتمع الأوروبيّ، ويتجلّى العامل الثّاني في ظهور الثّورات والانتفاضات والصّراعات الاجتماعيّة بين الشّعوب والحكّام أو الكنائس، أمّا العامل الثالث فهو ما ألقته أعمال كوبرنيكوس ونيوتن بظلال قائمة من الشّك حول مفهوم الكون والإنسان، لذلك عمل أوُغست كومت في ضلّ تلك العوامل على تأسيس علم يدرّس المجتمع وتاريخه كما نجد أنّه وهربت سبنسر وكارل ماركس متأثّرين بالكون أو الفيزياء الكونيّة في دراستهم للمجتمع.

أُوغست كومت (1798–1857):

إنّ الاسم الشائع لعلم الاجتماع الآن هو (علم الاجتماع/ سوسيولوجيا) وقد ابتكره أوغست كومت وسماه أوّل الأمر (الفيزياء الاجتماعيّة)، إلاّ أنّ بعض منافسيه المثقّفين كانوا يستخدمون هذا المصطلح في ذلك الوقت. وحاول كومت أن يمّيز آراءه ومفاهيمه عن مفاهيمهم، فأتى بمصطلح (علم الاجتماع) لوصف ميدانه البحثيّ.

كان تفكير كومت آنذاك انعكاساً للأحداث المضطربة التي اتّسم بها عصره، فقد أدخلت الثّورة الفرنسيّة تغييرات مهمّة على المجتمع، وكان التصنيع المتنامي قد بدأ بتعديل أساليب الحياة التقليديّة للفرنسيّين. ومن هنا سعى كومت إلى وضع علم جديد للمجتمع لتفسير القوانين التي تنظّم حياة العالم الاجتماعيّ مثلما هو الحال في العالم الطّبيعيّ.

وكان كومت يدرك أنّ لكل مجال علميّ موضوعه الخاص، إلاّ أنّه رأى أنّ جميع هذه المجالات تنتظم وفق منطق واحد، وتتحرّك وفق منهج علمي يهدف إلى كشف النّقاب عن قوانين شاملة. ومثلما يسمح لنا اكتشاف القوانين التي تحكم العالم الطّبيعي بالسّيطرة على الأحداث والتنبّؤ بوقوعها، فإنّ كشف القوانين التي تحكم سلوك المجتمعات الإنسانيّة سيعيننا على رسم مصائرنا والإرتقاء بحالة الرّفاه

البشريّ. وكان كومت يرى أنّ المجتمع، مثله مثل العالم الطّبيعيّ، يمثل في أنشطته لقوانين ثابتة لا تتغيّر.

إنّ رؤية كومت لعلم الاجتماع كانت رؤية علميّة وضعيّة. وكان ينبغي على علم الاجتماع، في اعتقاده، أن يطبّق المنهجيّات العلميّة الصّارمة في دراسة المجتمع كما هو الحال في الأساليب التي تنتهجها الفيزياء والكيمياء في دراسة العالم الطّبيعيّ. وترى المدرسة الوضعيّة أنّ على العلم أن يُعنى بالكيانات العيانيّة التي يمكن ملاحظتها واختبارها بالتجربة فحسب.

ويرى كومت في قانون المراحل الثّلاث الذي وضعه أنّ المسعى البشريّ لفهم العالم قد يمرّ بثلاثة أطوار أساسيّة وهي: الطّور اللاّهوتيّ والطّور الميتافيزيقيّ والطّور الوضعيّ. ففي المرحلة اللاّهوتيّة كان الفكر الإنسانيّ مسيّراً وفق الأفكار الدّينيّة والاعتقاد بأنّ المجتمع ما هو إلا تعبير عن إرادة الله.

وفي المرحلة الميتافيزيقيّة التي طرأت على الفكر البشريّ في فترة عصر النّهضة الأوروبيّة بدأ النّاس ينظرون إلى المجتمع في إطاره الطّبيعيّ لا باعتباره ناجماً عن قوى فوق الطّبيعة.

أمّا المرحلة الوضعيّة التي دشّنتها الاكتشافات والإنجازات التي حققّها كلّ من كوبرنيكوس وغاليليو ونيوتن، فقد اتّسمت بتشجيع تطبيق الأساليب العلميّة لدراسة العالم الاجتماعيّ. وانطلاقاً من هذا

الاعتقاد، اعتبر كومت أنّ علم الاجتماع هو آخر العلوم التي نشأت في هذا الإطار على غرار ما آلت إليه الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء، غير أنّ علم الاجتماع هو الأكثر تعقيداً وأهمّية من العلوم كافة(1).

نلاحظ أنّ كومت كان متأثّرا بالقوانين الفيزيائيّة التي تدرس المجتمع فقد سمّى علمه الجديد (الفيزياء الاجتماعيّة) وكان يؤكّد دائما على البحث عن قوانين اجتماعيّة مثل القوانين الطبيعيّة. كما أنّه يرى أنّ العالم الاجتماعيّ والطبيعيّ يحكمهما منطق واحد، لذلك يؤكد على أنّ المنهجيّة يجب أن تكون واحدة أو مشابهة، وقد سعى لكشف قوانين ثابتة لتفسير الظّواهر الاجتماعيّة مثلها مثل قوانين النّظم الكونيّة.

والمجتمع والكون حسب رأيه تربطهما علاقة فالعالم الاجتماعي هو انعكاس للنّظام الكونيّ. لذا فإنّ كومت سبقنا في طرح العلاقة بين الأنظمة الكونيّة والاجتماعيّة فهو يعطي لنا دليلا علميّا جليّا يمكّننا من تبنّي الفكرة التي نحن بصدد طِرحها في هذا الكتاب.

1- أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة: د. فايز الصيّاغ، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2005، ص61-62.

هربرت سبنسر (1820–1903):

يعتبر هربرت سبنسر المؤسّس الثّاني لعلم الاجتماع كما يعدّ نموذجا آخر من العلماء الذين حاولوا ربط الظّواهر الكونيّة بالظّواهر الاجتماعيّة من خلال قانون شامل يوحّد وحدة الوجود، حيث أوضح فيه أنّ التقدّم سواء في مجال الكائنات العضويّة أو الطبيعيّة أو المجتمع، إنّما هو تطوّر من ظروف تؤدّي فيها الأجزاء المتشابهة وظائف متشابهة إلى ظروف تؤدّي فيها الأعضاء أو الأجزاء غير المتشابهة وظائف غير متشابهة، أي من الشّكل الموحّد إلى الأشكال المتعدّدة أو من التجانس إلى اللاّتجانس. إنّ التقدّم من التجانس إلى اللاّتجانس هو القانون العام للتقدّم سواء في النّظم غير العضويّة أو العضويّة أو فوق العضويّة (المجتمع). فمن خلال هذا القانون أراد سبنسر أن يفسّر كل الوجود الكونيّ، حيث اعتبر أنّ الكون والكائن الحيّ والمجتمع تربطهم علاقة واحدة أي نظام واحد وهو الذي يحرّكهم ويطوّرهم.

وقد صاغ في كتابه (المبادئ الأولى) المبدأ التطوّري للوجود من خلال ثلاثة قوانين أساسيّة، أوّلها قانون استمرار القوّة: الذي يشير إلى وجود واستمرار نوع من العلّة النهائيّة تفارق المعرفة. وثاني القوانين هو قانون عدم قابليّة المادّة للفناء: (ويعدّ هذا القانون واحداً من المكتشفات الفيزيائيّة الحديثة في عصر سبنسر، وقد ثبت عدم صحّته في الوقت الحاضر). أمّا القانون الثّالث فهو قانون استمرار الحركة أو

اتّصالها: وهو يعني أنّ الطّاقة تتحوّل من شكل إلى آخر وتستمرّ في هذه العمليّة. وقد أضاف فيما بعد أربع قضايا ثانويّة وهي: استمرار العلاقة بين القوى أو الشّكل الموحّد للقانون، وتحوّل القوى وتعادلها، وميل كلّ شيء إلى التحرّك في الاتجاه الذي تقلّ فيه المقاومّة ويتزايد فيه الجذب، ومبدأ التغيير وإيقاع الحركة. وقد استمدّ سبنسر العديد من هذه المبادئ من فيزياء عصره.

اعتقد سبنسر أنّ الحصيلة العامّة لهذه القوانين السّبعة يمكن أن تتمثّل في قانون التطوّر الذي كان عنده بمثابة القانون السّامي لكلّ موجود. فنجده قد فسّر المجتمع والكون من خلال تلك القوانين السّبعة الذي تتّحد مع بعضها في عمليّة التطوّر على طول خطّ التّاريخ الكونيّ والبشريّ(1).

1- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، مصدر سبق ذكره، ص63-66.

كارل ماركس (1818-1883):

يعتبر كارل ماركس أحد المؤسّسين لعلم الاجتماع الحديث بالإضافة إلى ماكس فيبر وإميل دوركهايم. كما يعّد النّموذج الثّالث الذي حاول ربط الظّواهر الكونيّة بالظّواهر الاجتماعيّة من خلال قانون شامل يوحّد وحدة الوجود. إذ تبنّى ماركس ديالكتيك هيغل في تفسير الكون والمجتمع، حيث ابتكر هيغل قانونا شاملا للوجود يتمثّل في الدّياليكتيك (الجدل)، واستعار ماركس هذا القانون لكنّه قلبه رأساً على عقب، حيث قال أنّ ديالكتيّك هيغل كان على قاعدة غير صحيحة ونحن وضعناها على قاعدته الصّحيحة. فدياليكتيك هيغل يقول أنّ الفكر سابق على المادة. بينما ماركس يقول أنّ المادّة سابقة على الفكر.

هذا الدّيالكتيك يتمثل في الثالوث الذي يحرك كل الوجود الكوني والاجتماعي: وهم الاطروحة والنقيض أو النفي والمركب.

إنّ كلّ نظام أو وجود إنّما يبدأ بتأكيد نفسه، ويسمّى عندئذٍ بـــ (الأطروحة أو التّأكيد) لكنّه عندما يكبر ويبدأ في فرض نفسه فإنّه يثير معارضة له ويتسبّب في وجود قوى تناقضه وتقف ضدّه، لذا تدعى (النّقيض أو النّفي). ومن خلال الصّراع الذي ينشأ ويحتدم بين (الأطروحة ونقيضها) يبرز وجود جديد أكثر علوّا وسموّاً وكمالاً

تتركّب فيه القوى المتعارضة في الأطروحة والنّقيض، وهذا الجديد الثّالث هو ما يدعوه ماركس بـ (التّركيب أو نفي النّفي).

فالدّيكاليكتيك في حقيقته يقوم على التّناقض وعلى صراع بين الأطروحة ونفيها (نقيضها)، صراع لا يمكن تجاوزه إلاّ بتركيب جديد منها، يصبح هو الآخر أطروحة تستدعي تركيباً جديداً، وهكذا تتمّ عمليّة التطوّر، وفيها تبدو الأهمّية الكبرى لمرحلة (النّقيض) والتي بدونها يتوقّف التّاريخ.

أمّا أهمّية مرحلة التّركيب فتأتي من أنّه بدونها يتأبّد الصّراع ويصبح بلا نهاية، فـ(التّركيب) يكفل تجاوز المرحلة الأولى (الأطروحة) مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بما يؤكّده هذه المرحلة (أي مرحلة الأطروحة أو التأكيد) وبما تعارضه (أيّ مرحلة النّقيض) وهكذا نرى أنّ التّركيب يحتفظ بكلّ ما هو حقيقيّ في المرحلتين السّابقتين (الأطروحة والنّقيض) إلاّ أنّه ومع مرور الزّمن، سيأتي الوقت الذي يصبح فيه هذا الوجود الجديد (أو التّركيب) أطروحة جديدة تؤكّد نفسها ثمّ تثير معارضة ثمّ تأتي المرحلة الثّالثة في شكل تركيب جديد أعلى ... وهكذا دواليك(1).

1 – علي وتوت، منهج سوسيولوجيا السّياسة، مصدر سبق ذكره، ص41.

واعتقدت الماركسيّة بعد ماركس أنّ هذا التّناقض الدّاخلي هو السّبب الكبير والوحيد للتطوّر، فقد قال لينين (التطوّر هو نضال المضادّات) وقال ستالين (تعتبر الطّريقة الدّياليكتيكيّة أنّ حركة التطوّر من الأدنى إلى الأعلى، لا تجري بتطوّر الحوادث تطوّراً تدريجياً متناسقاً، بل بظهور التّناقضات الملازمة للأشياء والحوادث بـــ(نضال) الاتّجاهات المتضادّة التي تعمل على أساس هذه التناقضات)(1).

لذا فإّن نفي النّفي، أو التّركيب بين النّفي والإثبات يعتبر روح التطوّر عند الماركسيّة استنادا لما قاله انجلز (فما هو إذن نفي النّفي، إنّه قانون لتطوّر الطّبيعة والتّاريخ والفكر، عام للغاية. ولذا له أهميّة ومدلول بالغين. إنّه – كما رأينا– قانون على مملكة الحيوان والنّبات وعلى الجيولوجيا والرّياضيات والتّاريخ والفلسفة).

(فإذا كنت أقول عن جميع هذه العمليّات أنّها نفي النّفي، فإنّي أفهمها في ضوء هذا القانون الوحيد للحركة، وبالتالي لا آخذ بالحسبان على وجه التحّديد خصائص كلّ عمليّة خاصّة على حدة.

ولكنّ هذا إنّما يعني بالضّبط: إنّ الدّياليكتيك ليس سوى علم القوانين العامّة للحركة ولتطوّر الطّبيعة والمجتمع البشريّ والفكر) (2).

---

1 – جوزيف ستالين، المادّية الدياليكتيكيّة والماديّة التاريخيّة(النظريّة الفلسفية العامّة لتطوّر الكون والمجتمع)، ترجمة: خالد بكداش، منشورات دار البديع، ط2، 1959، ص19.

2 – فردريك أنجلز، نصوص مختارة، ترجمة: وصفي البني، منشورات وزراة الثقافة، مطبعة وزراة الثقافة، دمشق، 1972، ص117–118.

من خلال ما تقدّم نفهم أنّ الماركسيّة تطبّق قانون الدّياليكتيك على كل الوجود الكونيّ فهي جعلت الكون والمجتمع يسيران في بوتقة واحدة وهي حركة الصّراع من خلال الدّياليكتيك.

مناقشة الآراء:

النقد أساس كل تطور، وسمة كل واقع، بل كل فكر، ووجود. فإن استحالة النقد حل الجمود، وساد السكون، وإن اتسع النقد ليشمل كافة مجالات الحياة، اتسم الواقع بالخصوبة ونضج الوعي(1). وما من مدرسة فكريّة أو نظريّة تفلت من شباك النّقد والمساءلة، في ضوء ما يشهده العالم من الطّفرات المعرفيّة والثورات العلميّة فضلاً عن التحوّلات الحضاريّة والمجتمعيّة. وهذا حال المدارس الحتميّة التي يعتقد أصحابها بأنّ للعالم قوانين ثابتة ومحكمة يسير بموجبها، بقدر ما يفسّرون الوقائع وفقاً لضرورات صارمة بنماذجها وآلياتها.

ولعلّ ابن خلدون هو أوّل رائد من روّاد هذه المدرسة في التفكير وسنتطرّق له فيما بعد، فقد كان يرى أنّ المجتمع الإنسانيّ طبائعه ثابتة وقواعده المطّردة التي يخضع لها في تطوّره من غير تبديل(2).

إنّ آراء المفكّرين أعلاه لا تكاد أن تخلو من النّقد، وإنّنا هنا نستطيع أن نميّز بين أفكارهم وهذا التمييز يأتي من باب أنّ لكل منهم نظرته للعالم وحصيلة من تأثيرات المحيط الذي ترعرع فيه ونشأ على أفكاره. فكومت له نظرة ثاقبة للكون والمجتمع حسب ما أرى على

1 – فريال حسن خليفة، نقد فلسفة هيجل – كيركجورد – فويرباخ – ماركس، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006، ص5.

2 – علي حرب، أصنام النظريّة وأطياف الحريّة، مصدر سبق ذكره، ص97.

خلاف سبنسر وماركس، فبالرغم من أنّه تأثّر بعلم الفيزياء إلاّ أنّه لم يخلط بين الفيزياء الكونيّة والمجتمع، فقوانينه خاصّة بعلم الاجتماع فحسب، وهذا السّلوك الفكريّ أخرجه من المغالطات على عكس سبنسر وماركس اللّذان صاغا قوانينا وضنّا أنّها تفسّر الكون والمجتمع معاً، فقوانينهما شاملة ومطلقة وهي تتمثّل بقانون (من التّجانس إلى اللاّتجانس) عند سبنسر، وبـــ(الدياليكتيكة الماديّة) عند ماركس. وبهذا هما وقعا في مغالطات كثيرة، وهذه المغالطات تأتيّ من كونهما من دعاة التطوّريّة النسبيّة، لذا هما إمّا أن يؤمنا بالنسبيّة وبالتّالي قوانينهما المطلقة يجب أن تطرأ عليها النسبيّة ومن ثمّ هي لا تصلح أن تفسّر كل الوجود. أو أن يؤمنا بالواقع المطلق والواقع ليس بمطلق محض بل هو خليط بين المطلق والنّسبيّ، فضلاً عن أنّهما نسبيّان وينكران الحقائق المطلقة.

ومن خلال قوانينهما تلك أرادا صياغة نظريّات تخصّ الواقع، ولكنّ نظريّاتهما كانت علويّة أي تعالج وتنظر للواقع من الأعلى. ثمّ إنّها لا تصلح لتفسير الوجود في الوقت الحالي لأنّ اكتشافات علم الفيزياء الحديث قد أحدثت تغييرات في فكر القرن العشرين والواحد والعشرين مقارنة عمّا كان عليه الفكر في القرن التّاسع عشر الذي ظهر فيه كلّ من سبنسر وماركس. ونحن نريد أن نكتشف وليس أن نكّون نظرية على غرارهم، واكتشافنا يُعنى بالعلاقة بين الكون والمجتمع وفق الفيزياء الحديثة، والاكتشاف خلاف التكّوين. فالأوّل

هو اكتشاف آثار الكون والمجتمع من خلال حركتهما وعملهما، لذلك يجب أن نصوغ قوانين تتناسب مع هذا الاكتشاف، فعندما وجد نيوتن كل شيء كبير يجذب الشّيء الصّغير سمّى هذا القانون بقانون الجاذبيّة، وهو صاغ هذا القانون من خلال اكتشاف حركة الجاذبيّة في الكون، ونفس الشّيء ينطبق على المجتمع وظواهره. أمّا إذا ما أردنا أن نكّون قانونا فوقيا لتفسير المجتمع والكون فهنا سنقع في مغالطة، فالتكوين ربّما يصلح في زمن ما أو مكان ما لكنّه لا يصلح على طول الخط الزّمكاني، بينما الاكتشاف هو عمليّة تتناسب مع طول خط الزّمكانيّة من خلال تتبّع آثار عمل الكون والمجتمع على طول تاريخ الوجود.

إشكاليّة الفكرة :

كانت الثّورة الفلكيّة التي أحدثها كوبرنيكوس عند إعلانه نظريّة مركزيّة الشّمس عوض مركزيّة الأرض للكون أهمّ إسهامات عصر النّهضة، لأنّها أحدثت تحوّلاً أساسياً في التصوّر الأوروبيّ للكون، ولأنّها أيضا قلبت العديد من التصوّرات والنظريّات العلميّة، وذلك ما يؤكّده الدّارسون بقولهم (فالتجّديد الذي جاء به كوبرنيكوس كان جذرياً حقاً عندما تقدّم به، فقد كان الوصف الفيزيائيّ للكون الذي جاء به كوبرنيكوس أقرب إلى الحقيقة من النّظام البطلمي القائم على مركزيّة الأرض ثمّ إنّ العلماء الذين أتوا بعد كوبرنيكوس من أمثال كبلر وغاليليو ثم نيوتن بعد ذلك، ما كان بوسعهم أن يحقّقوا لولا التحوّل من مركزيّة الأرض إلى مركزيّة الشّمس)(1).

لقد زعزعت نظريّة كوبرنيكس أركان النظريّة التي تقوم عليها الفيزيقا الأرسطيّة، وكذلك تصوّر الكون الذي كانت تؤمن به وتنشره الكنيسة وتعمل على تبريره بتأويل الكتاب المقدّس وفق مقتضيات هذا التصوّر، مّما قلّص سلطتها في مجال المعرفة، خاصّة بعد ظهور الطّباعة وتيسيرها لانتشار الأفكار، فمهما كانت المواقف التي يتبنّاها المسؤولون الكنسيّون منذ ذلك الوقت فصاعدا، فإنّ وسيلة

1– فارح مسرحي، الحداثة في فكر محمد أركون، منشورات الإختلاف، الدّار العربيّة للعلوم– ناشرون، الجزائر، 2006، ص28–29.

اتصال يصعب كبتها أصبحت في متناول الأفراد ذوي الميول العلميّة بوصول المطبعة في العقد السّادس من القرن 15م.

سبق وأن قلنا أنّ ميدان العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة ظهر نتيجة عصر التنوير الذي رافق ظهور العلوم الطبيعيّة الفيزيائيّة والبايولوجيّة والكيمائيّة...إلخ، لذلك وجدنا أنّ كومت قد أسّس لعلم الاجتماع متأثّرا بفيزياء عصره، كما أنّ كلاً من سبنسر وماركس قد حاولا أن يجدا قوانين تفسّر الطّبيعة والكون والمجتمع معاً، كما انبرى علماء الاجتماع في تطوير نظريات اجتماعية متماثلة مع العلوم الطبيعيّة فنجد أصحاب النظريّة (البنائيّة الوظيفيّة) قد شبّهوا المجتمع بالكائن العضويّ، في حين نجد أنّ أصحاب نظريّة (الدّاروينيّة الاجتماعيّة) قد شبّهوا المجتمع بنظريّة التطوّر لدراون متأثّرين بكتابه (أصل الأنواع).

ولكن نشب نزاع بين العلوم الطبيعيّة والعلوم الإنسانية إبّان القرن التّاسع عشر، وقد كانت جذور هذا النّزاع هي الاعتراف بنموذج البحث المنهجي للمعرفة، الذي تحدّد خلال المرحلة الحديثة كلّها بواسطة العلوم الطبيعيّة المضبوطة(1).

فمنذ كومنت الذي يقول بإمكانية دراسة المجتمع بنفس الأساليب والطرق والخطوات المنهجية التي تدرس بها العلوم الطبيعية، وهذا حتى

---

1 – روديجر بوبنر، الفلسفة الألمانيّة الحديثة، ترجمة: فؤاد كامل، دار الثّقافة للنّشر والتوزيع، القاهرة، بدون تاريخ، ص46.

يحقق علم الاجتماع تقدماً معرفياً ونتائج عملية ويصل إلى "القوانين" التي تحكم المجتمع. وهدفه هو أن يجعل الدراسة الاجتماعية مشابهة في صحتها ودقتها للقوانين الفيزيائية، لأن حركة المجتمع تخضع كما يقول كومنت بالضرورة لهذه القوانين التي لا تتغير، بدلاً من أن يحكمها نوع من الإرادة(1).

لهذا يرفض فلاسفة مدرسة فرانكفورت أي "تماثل معرفي" قد يقوم بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية لأن الحياة الاجتماعية لا تخضع للقوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية الامر الذي حدا بهولاء الفلاسفة لنقد الترعة الوظعية والعلموية التي تمثل المجتمع بالكون(2).

لذلك فقد عمل (دلتاي) على تطوير هرمينوطيقا (التأويل) (شلير ماخر) إلى منهج كلي للعلوم الاجتماعيّة والدّراسات الإنسانيّة. فقد رأى دلتاي أنّ حقل علوم الطّبيعة إنّما هو معنيّ بالأساس بـــ(تفسير) الظّاهرة الطّبيعيّة، في حين أنّ حقل علوم الرّوح يختصّ بـــ(فهم) الإنسان سواء كان في ذاته أو في علاقته مع الآخر أو في علاقته مع مجتمعه...الخ.

---

1 – كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت (من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث)، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص44-45.
2 – المصدر نفسه، ص46.

ويظهر هنا بكل وضوح التميز الأساسيّ الذي استند إليه دلتاي في محاولته الرّامية للتمييز ما بين العلوم الطبيعية من جهة وعلوم الرّوح من الجهة الثّانية، ألا وهو التّمييز ما بين (التّفسير) الذي ميدانه وموضوعه (الطّبيعة)، و(الفهم) الذي ميدانه وموضوعه (الإنسان) وهو الأمر الذي تؤكّده المقولة الشّهيرة له(ليس بإمكاننا أن نشرح الإنسان وإنّما نحن نفسّر ونشرح الطّبيعة ونفهم أو نتأوّل الإنسان). إذن تمثّل الإسهام الأساسي لدلتاي في جهوده المبذولة للتأكيد على أنّه ثمّة اختلاف كبير بين التعامل مع ظواهر الطّبيعة في مقابل التعاطي مع الظّاهرة الإنسانيّة، فالأولى نشرحها ونفسّرها في حين الثانية نفهمها ونأوّلها، وهناك فرق كبير بين التّفسير/ الشّرح، والفهم/ التأويل.

وهو يرى أنّ تفسير الظّاهرة الإنسانيّة بذات المناهج التجريبيّة المستعملة في ميدان العلوم الطبيعيّة أمر محال، وبالتالي فإنّ ذلك يعني أنّه يشير إلى حقيقة أساسيّة وهي أنّنا لا نعرف الإنسان بنفس الطّريقة التي تعرف بها الأشياء، وأنّ ثمّة مناهج أخرى غير مناهج العلوم الطبيعيّة، وينبغي على علوم الإنسان أن تتبنّى مناهجها الخاصّة بها. فالمناهج المستخدمة في ميدان العلم الطبيعيّ ليس في مقدورها النّفاذ إلى كينونة الظّاهرة الإنسانيّة، فهنالك الكثير من الظّواهر الإنسانيّة التي من الصعب إمكانيّة تفسيرها وشرح أسبابها بالطّريقة الآليّة في رصد ومتابعة وملاحظة ظواهر الطّبيعة، وبالتالي فإنّنا لا نستطيع شرح

وتفسير الظّاهرة الإنسانيّة وهذا يرجع إلى سبب بسيط وهو أنّه ليس في مقدورنا إخضاعها للتجريب، وهذا باختصار ما تجلّى في قول دلتاي: ليس بإمكاننا أن نشرح الإنسان وإنّما نحن نشرح الطّبيعة ونفهم ونتفهّم الإنسان (1).

ونحن هنا عرضنا إشكاليّة الفكرة لكنّنا غير معنيّون بطريقة المناهج في كلا الحقلين، بمعنى أنّنا لا نريد أن نستخدم منهجا يفسّر الكون والمجتمع معاً، ربّما يتسائل سائل بأنّ المناهج مختلفة بين الحقلين فأين تكمن المماثلة، لذا نجيبه ونقول أنّ المماثلة تكمن في ما توصّلت إليه العلوم الطبيعيّة والإنسانية من حقائق حول كيفيّة وجود الطّبيعة (الكون) والمجتمع، رغم أنّ الكون تحكمة قوانين قهريّة ضروريّة ورغم أنّ المجتمع تحكمه قوانين جزئيّة جاءت من خلال القرار الإنسانيّ، ولكن في النّهاية فإنّ كلاّ من الكون والمجتمع يسيران في نفس الاتجاه بالسليقة وهذا ما سنوضّحه في هذا الكتاب.

---

1 – مجدي عزالدين حسن، من نظرية المعرفة إلى الهرمينوطيقا، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، 2014، ص258–259.



الفصل الثاني

تطوّر الكون والمجتمع



يتّفق كلّ علماء الفيزياء والفلك أنّ بداية الكون بدأت بالانفجار الكبير، ويعتبر العالم الفلكيّ أدور لومير هو أوّل من وضع هذه النظريّة في سنة 1927، ثمّ احتضنها فلكيّون وفيزيائيّون آخرون جاءوا بعده وعملوا على تطويرها، وكان على رأسهم الفيزيائيّ الأمريكيّ (جورج كاموف). وبذلك قضت هذه النظريّة على أزليّة الكون(1)، لأن هذه النظرية جاءت لتدحض نظرية كوسمولوجية سابقة لها كان يقول بها عدد من العلماء من أمثال البريطاني هيرمان بوندي وتوماس غولد وفريد هويل وغيرهم، ومن بينهم آينشتين في بداياته العلمية وهي نظرية الكون الساكن والثابت والمستقر والأزلي والأبدي، والتي تتيح لهم تفادي ضرورة وجود خالق وعملية خلق.

1- عبدالودود رشيد محمد، شهادة الكون، بدون مكان طبع، 1990، ص120.

ولكن يبقى السّؤال مطروحا لدى الباحثين: كيف كانت حالة الكون قبل الانفجار الكبير؟ يقول ستيفن هوكنغ (يحتمل أنّ الزّمان – المكان ليس أزليّا ولكنّه بدون حدود، أي لم تكن له بداية، ولا لحظة خلق)(1). أمّا باول ديفز فيقول (ظلّ سبب الانفجار الكبير، اللّغز الأكبر في الكون، وقد بقيت الإجابة عن هذا السّؤال ميتافيزيقيّة أي مستندة إلى قوى ما وراء الطّبيعة، أمّا اليوم فهناك تفسير علميّ وهو أنّ الكون قد خرج إلى الوجود الفيزيائي من لا شيء، وفي تلك اللّحظة أيضا ولد الزّمان والمكان في الوجود)(2). كما يعطي ميتشيو كاكو العالم الفيزيائي المعاصر تفسيرا لذلك فيقول (كوننا ليس إلاّ عبارة عن فقاعة، ويوجد هناك فقاعات أخرى تعوم، ويكون الانفجار نتيجة اصطدام بين إثنان من تلك الفقاعات الذي ما يعرف "الانفجار الكوني الكبير" ونحن نعتقد أنّ هذا هو تصوّر ذلك الانفجار. أو ربّما برز إلى حيّز الوجود في الكون من لا شيء وهذا احتمال وراد. لكن هل يمكن أن يكون أساس الكون من العدم، كيف يمكنك إنشاء الكون من لا شيء؟ إذا قمت بحساب المجموع الكليّ للشّحنة الموجبة والشّحنة السّالبة في الكون ستكون نتيجة جمعهما (−1+1=0) أي

1– ستفين هوكنغ، موجز تأريخ الزّمن، ترجمة: باسل محمّد الحديثي، دار المأمون، ط1، العراق، 1990، ص180.

2– باول ديفز، القوّة العظمى، ترجمة: ميادة نزار، وزارة الثّقافة والإعلام، كتاب علوم المترجم، العراق، 1989، ص16.

سيكون النّاتج لا شيء: خالي من الشّحنات، بعبارة أخرى الكون له صفر بعمليّة جمع دوزان المجرّات، وصفر بعمليّة جمع الشّحنات، وصفر بعمليّة جمع الطّاقة، فإنّ الكون هو كون من لا شيء).

نتسائل هنا ونقول كيف بدأ الكون وكيف تطوّر إلى ما هو عليه الآن؟ ظهرت النظريّة الحديثة لأصل الكون بعد اكتمال النسبيّة العامّة لدى اينشتاين. ومع أنّ آينشتاين قد رفض أن يعطي لنظريّته قيمتها الحقيقيّة ويوافق أنّها تتضمّن أنّ الكون ليس أبدياً ولا ساكناً، إلاّ أنّ ألكسندر فريدمان قد فعل ذلك. فقد وجد فريدمان ما هو معروف الآن بأنّه حلّ معادلات آنيشتاين عن طريق الانفجار الكبير– وهو الحلّ الذي يعلن أنّ الكون قد انبثق عن حالة انضغاط لا نهائيّة، وهو الآن في حالة تمدّد بعد هذا الانفجار الأوليّ. كان آينشتاين على يقين لدرجة أنّه نشر مقالاً قصيراً معلناً أنّ مثل هذه الحلول المتضمنة للتغيّرات الزّمنيّة ليست نتيجة لنظريّته، وزعم أنّ هناك خطأً قاتلاً في بحث فريدمان. إلاّ أنّه وبعد مرور ثمانية أشهر نجح فريدمان في إقناع آينشتاين بعدم وجود أخطاء، الأمر الذي جعل آينشتاين يسحب اعتراضه علناً لكن بأدب مصطنع. ومع ذلك، كان من الواضح أنّ آينشتاين لم يقتنع تماماً بأنّ نتائج فريدمان لها أيّة علاقة بالكون. ولكن بعد حوالي خمس سنوات من ذلك، وبناءًا على مشاهدات هابل التفصيليّة للعشرات من المجرّات بواسطة تلسكوب ذي مرآة مئة بوصة من مرصد ماونت ويلسون (**Mount Wilson**) تأكّد بما لا يدع مجالاً للشك من أنّ العالم في حالة تمدّد وتوسّع. وقد تمّت

إعادة صياغة أبحاث فريدمان بطريقة أكثر منهجيّة وكفاءة بواسطة الفيزيائيين هوارد وروبرتسون وآرثر ووكر وهي ما زالت تشكّل أساس الكوسمولوجيا الحديثة.

وبشيء أكثر من التفصيل فإنّ النظريّة الحديثة عن أصل الكون تبدو كما يلي: منذ حوالي **15** مليار سنة انبثق الكون من حدث طاقيّ فريد وهائل، لفظ كلّ الفضاء والمادة (وليس عليك أن تبحث بعيداً عن موقع حدوث الانفجار الكبير(•)، لأنّه حدث في الموقع الذي أنت فيه وفي كل مكان آخر، ففي البداية كانت كلّ المواقع التي نراها منفصلة الآن، نفس المكان). كانت درجة حرارة الكون **43-10** بعد ثانية على حدوث الانفجار العظيم، وهي اللّحظة التي أطلق عليها "زمن بلانك"، فقد حسبت ووجدت حوالي **32-10** كلفن، أي أنّها أسخن بمقدار **10** تريليون تريليون مرّة من أعمق مكان داخل الشّمس. وبمرور الزّمن تمدّد الكون وأصبح أبرد، وأثناء ذلك بدأت المادّة الكونيّة البلازما الأوليّة المتجانسة والمتوهّجة تقريباً بعد الانفجار الكبير أصبحت الأشياء باردة بما يكفي بتجمّع الكواركات معاً في مجموعات من ثلاثة، مكونة البروتونات والنيوترونات، وبعد

• - الانفجار هو الصّوت، الصّوت هو العامل الذي يجمع الأشياء معا، الصّوت هو الأساس للأشكال والتركيبات، الصّوت هو الكلمة والكلمة هي البداية، فالكلمات هي التي خلقت الوجود باللّحظة الكنّية، إن قمنا بصياغة هذا الأمر من خلال العصر الحديث فسوف نقول أنّه في الوجود العظيم جاء صوت فتكون الكون والمادّة.

حوالي جزء من مائة من الثّانية أصبحت الأمور صالحة لتكوين أنويّة بعض أخفّ العناصر في الجدول الدّوريّ لتبدأ في التجمّد من بلازما الجسيمات التي تبرد.

وخلال الدّقائق الثّلاث التّالية وعندما برد الكون الملتهب إلى حوالي مليار درجة، فإنّ الأنويّة السّائدة التي انبثقت كانت أنويّة الهيدروجين والهليوم، مع كميّات ضئيلة من الديوتيريوم (الهيدروجين الثقيل) والليثيوم. وتعرف هذه الفترة باسم (التخليق النوويّ البدائيّ).

ولم يحدث الكثير في المائة ألف عام التي تلت ذلك أكثر من استمرار التمدّد والتبريد. غير أنّه عندما انخفضت درجة الحرارة إلى بضع ألوف من الدّرجات، أخذت الإلكترونات المتدفّقة بلا نظام تتباطأ للدّرجة التي تمكّنت عندها الأنويّة الذريّة، غالباً الهيدروجين والهليوم، من اقتناصها لتكون أوّل الذّرات المتعادلة كهربياً. كانت تلك اللّحظة محوريّة: فقد أصبح العالم شفافاً على جميع المستويات. وقبل عصر اقتناص الالكترونات كان الكون مليئاً ببلازما كثيفة من جسميات مشحونة كهربائياً– بعضها شحنتها موجبة مثل الأنويّة، بينما الأخرى لها شحنة سالبة مثل الإلكترونات. كانت الفوتونات المثارة، التي لا تتداخل إلا مع الجسيمات المشحونة، تسحب بإصرار بواسطة الكتلة الكثيفة للجسيمات المشحونة، فلا تستطيع أن تنتقل

إلا لمسافات ضئيلة جداً قبل أن تنحرف أو تمتصّ. وقد جعل حاجز الجسيمات المشحونة أمام الحركة الحرّة للفوتونات الكون يبدو وكأنّه معتّم، تماماً مثل ما يمكن مشاهدته صباح يوم كثيف الضباب أو أثناء عاصفة ثلجية كثيفة جداً.

غير أنّه عندما دخلت الالكترونات سالبة الشحنة في مداراتها حول الأنويّة موجبة الشّحنة وكوّنت ذرات متعادلة كهربياً، اختفى المانع المشحون وانقشع الضّباب الكثيف. ومنذ تلك اللّحظة أصبحت الفوتونات النّاتجة عن الانفجار الكبير تنتقل من دون أيّة معوقات، وأصبحت تتّضح رؤية كلّ مدى الكون تدريجياً.

وبعد حوالي مليار سنة أخرى، وبعد أن هدأ الكون بصورة محسوسة من البداية المجنونة، بدأت تنبثق المجرّات والنجوم، وفي النّهاية صارت الكواكب كتجمّعات للعناصر البدائيّة مرتبطة بواسطة الجاذبيّة.

واليوم، وبعد ما يقارب عن **15** مليار سنة من الانفجار الكبير يمكننا أن نبدي دهشتنا بكلّ من عظمة الكون ومقدرتنا الجماعيّة على أن نجمع معاً نظريّة منطقيّة من السّهل اختبارها عن أصل الكون(1).

1- برايان غرين، الكون الأنيق، ترجمة: د. فتح الله الشيخ، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2005، ص377-379

نستخلص ممّا تقدّم أنّ الكون مرّ بثلاث مراحل تطوّر وما زال في طور التطوير والتمدّد والتوسّع إلى ما لا يدركه العقل في الوقت الحاضر، فالمرحلة الأولى: بدأت بالانفجار الكبير والحرارة المطلقة ووجود الضّغط الهائل، المرحلة الثانية: بدأت بعد مئة ألف عام حينها برد الكون إلى حوالي مليار درجة وتمدّد مولداً كلاّ من أنويّة الهيدروجين والهليوم، مع كميات ضئيلة من الديوتيريوم (الهيدروجين الثقيل) والليثيوم، فضلاً عن الشحنات السّالبة للالكترونات والأنوية الموجبة التي كوّنت ذرّات متعادلة وأصبح الكون كالضّباب الذي نعرفه اليوم، المرحلة الثّالثة: بدأت بعد حوالي مليار سنة أخرى انبثقت فيها المجرّات والنّجوم والكواكب التي نعرفها اليوم وما زال الكون في توسّع وتطوّر مستمرّ.

إنّ التطوّر عمليّة مستمرّة أو قافلة تسير لا تأبى من يعارضها، فهي تسير بالسليقة، والقوانين الكونيّة الأربعة التي تتحكّم في عمل الكون جاءت نتيجة التطوّر الكونيّ، لذا فالتطور سابق لتلك القوانين، وهذه القوانين قابلة للتطوير أيضاً لأنّها محكومة بقانون التطوّر، وبما أنّ الكون له بداية ويتطوّر فهو إذن له غاية وغرض من وجوده، والغايات هي الرّجوع إلى البدايات وما زال الفيزيائيون يتنبّئون بزوال الكون ورجوعه إلى اللاّشيء وسنوضّح ذلك في مستقبل البحث، والغاية من وجود الكون منوط بالإنسان والمجتمعات، لأنّ

الإنسان من بين كل الموجودات الكونيّة له إدراك وإرادة ووعي، فهو الذي اكتشف هذا الكون الهائل وما زال يكتشف أسراره وخفاياه يوما بعد يوم، من المعلوم أنّ الأرض لا شيء أمام الكون الهائل فما بالك بالانسان الموجود على الأرض فهو كالذّرة في بحر إن صحّ الوصف، لكنّ للإنسان عقل وسع هذا الكون، فانظر إلى المفارقة في الإنسان فمن جانب فإنّ جسده الفيزيقي يعتبر أقلّ من ذرّة على هذا الكون الواسع، لكن من جانب آخر فإنّ عقله المعنويّ وسع الكون بأجمعه. فرؤية الإنسان ينبغي أن لا تكون أحاديّة الجانب فهو ذرّة في الكون كما بيّنا ولكنّه يطمح إلى سبر أغواره، وهو يرغب في أن يحيا هويّته حدّ العشق الذّاتي ولكنّ الغير قدره ومرآته. الإنسان عالم أصغر بقدر ما هو أكبر. وهذا هو معنى (الإنسان الكامل)(1). لو لا وجود الإنسان لما كان هناك وجود إنساني، فالكون وجود لكن بدون الإنسان ليس وجوده إنسانياً، فحين جعل الإنسان وجود الكون موضوع للتأمل، وخلق الأفكار حوله، وأبدع الأشعار والقصص، وأنتج النظريات ليفسره ويفهمه، صار الكون إنسانياً(2). لذا فإن هناك علاقة بين الكون والمجتمع.

---

1 – علي حرب، التأويل والحقيقة (قراءات تأويليّة في الثّقافة العربيّة)، دار التنوير، بيروت، 2007، ص86.

2 – أحمد برقاوي، كوميديا الوجود الإنساي، التكوين للتأليف والنشر والتوزيع، دمشق، 2009، ص17.

إنّ المجتمع يأتي ضمن هذا الصّرح الواسع والمتمدّد الذي يدعى الكون، والمادّة التي تشغل حيّزا بهذا الكون لها بناء هرميّ، فالكوراكات تستدخم لبناء البروتونات والنيوترونات التي تبني بدورها النّواة التي تشترك في تكوين الذّرات، وتتّحد الذّرات مع بعضها لتكوّن الجزيئات، ومن ثمّ فإنّ هذه المواد الأساسيّة جميعها تكوّن الأجسام الّصلبة حولنا، وبالتدريج نحو الأعلى نصل إلى أنظمة الكواكب وتجمّعات النّجوم ثمّ المجرّات، وحتى المجرّات تتجمّع في مجموعات كبيرة هائلة. ويأتي المجتمع في مكان ما وسط هذا التسلسل الهرميّ ويصبح بالنّسبة للذّرة، مثلما هي النّجمة بالنّسبة لنا(1).

وبما أنّ المجتمع جزء من الكون فهو الآخر محكوم بقانون التطوّر، فنرى المجتمع يرتقي فكرياً وعلى مستوى الوعي جيلاً بعد جيل، وبالرّغم من أنّ الإرادة تدخل في صميم ذلك لكنّ التطوّر يجري بالسّليقة في المجتمع والكون، فحتى المشكلات الاجتماعيّة والفساد والجرائم لها جانب تطوريّ ذلك أنّ الآلام التي تمرّ بها البشريّة تجعلهم أكثر وعياً وتكاملاً وتكسبهم تجارب أكثر. فكلّ مشكلة تستدعي من المجتمع أن يجد لها حلاّ والحل هو التطوّر الاجتماعيّ، فالذي يولد من رحم المعاناة أفضل من الذي يولد من رحم أمّه فحسب، فمثلا بعد المعاناة التي مرّ بها المجتمع الأوروبي نهض بعصر التنوير والثّورة

---

1 – باول ديفز، القوّة العظمى، مصدر سبق ذكره، ص25-26.

الصّناعيّة ووصل إلى هذا الصّرح الهائل من التطوّر الذي نراه اليوم، فالمعاناة هي التي جعلت من المجتمع الأوروبي ينهض ويطوّر نفسه في عصر سمّي بعصر النّهضة. إذن فتطوّر الكون هو قانون سليقي يجري على كلّ الموجودات ومن ضمنها المجتمع. وقد مرّ تاريخ البشريّة بثلاث مراحل من التطوّر وهي: التطوّر الكميّ والتطوّر البايولوجيّ والتطوّر الكيفيّ، وما زال هذا التطوّر الأخير لم ينتهي بعد.

***

إنّ التطوّر الكميّ والبايولوجيّ مرتبطان مع بعضهما البعض، فمن خلال التطوّر البايولوجيّ حدث التطوّر الكميّ، فقد جاء دارون بنظريّة الانتخاب الطبيعيّ ورأى أنّ التطوّر البايولوجيّ للكائنات الحيّة خضع لقانون التطوّر والارتقاء فهذه الكائنات تفنى وتتطوّر وتنتج أشكالا جديدة بفعل الانتخاب الطّبيعيّ، والإنسان بما أنّه كائن فقد تطوّر بفعل هذا القانون، فحسب النظريّة الدّاروينيّة فإنّ القرد والإنسان جاءا من سلالة واحدة، فقد كان هناك كائن حي لم يكن إنساناً ولا قرداً وإنما بين بين، ومع الوقت أنتجت هذه السّلالة من التطوّر نوعان من الكائنات الحيّة وهما النّوع البشريّ ونوع القردة، وعن طريق هذا الإنسان المتطوّر بفعل الانتخاب الطّبيعيّ تكاثرت البشريّة تكاثراً كميّاً. بالرّغم من أنّني أتّفق مع دارون في قانون التطوّر لكني أتحفّظ على شكل هذا التطوّر وما جاء به في أصل أنواع الموجودات ولست هنا بصدد مناقشته.

هناك حقيقة أخرى لأصل الأنواع وهي الخلق، فالغالبيّة من البشر تؤمن بالحقيقة الدينيّة التي تقول أنّ آدم هو أوّل إنسان خلق ومن بعده خلقت حواء من قبل الله، وعن طريق تزاوجهما تكاثرت البشريّة.

وبالتّالي فإنّ التطوّر الكميّ للبشريّة حدث بفعل التطوّر أو التزاوج البايولوجي، فكانت نسبة سكّان المجتمعات الأولى قليلة لكنّها تتمتّع بعمر طويل جداً وأجسام قويّة، وكان عمر الفرد يقدّر ما بين 500 إلى 1000 عام، ثمّ استمرت هذه المرحلة من التطوّر البايولوجي والكمي إلى زمن طوفان نوح، وما بعد الطوفان دخلت البشريّة بمرحلة بايولوجية أخرى فأصبح عمر الفرد 500 عام وما دون وصار الجسد البشريّ أضعف من ذي قبل، وفي المقابل أصبح هناك تزايد في عدد السّكان. أمّا المرحلة الثّالثة من تطوّر البشريّة فقد بدأت تقريباً من زمن عيسى المسيح(ع) إلى يومنا هذا حيث أصبح عمر الفرد 100 عام فما دون وضعف في البنية الجسديّة أكثر من ذي قبل، وفي المقابل ازداد عدد السّكان بصورة كبيرة حيث يقدّر عدد السّكان في الوقت الحاضر بأكثر من 7 مليارات نسمة. إذن نستنتج من ذلك أنّ التطوّر الكميّ مرتبط بالتطوّر البايولوجي ارتباطاً عكسياً أي كلّما قلّ التطوّر البايولوجي ازداد التطوّر الكميّ. علماً وأنّ نقصان العمر وضعف بنية الجسد ليسا نكوصا بايلولوجيا وإنّما

هو تكيّف مع طبيعة الكون فحسب. فلو افترضنا أنّ عمر الفرد الآن 1000 عام مع هذا العدد السّكاني فماذا سيحدث؟ ممّا لا شكّ فيه فإنّ كثرة الولادات وقلّة الوفيّات ستؤدّي إلى تضخّم سكانيّ هائل وستكون عاملا لظهور مشكلات اجتماعيّة جمّة. وبالتالي سيحدث شرخ في قانون التطوّر العام للكون والمجتمع وهذا غير قابل في قانون التطوّر.

شغل تزايد عدد السّكان الفكر البشريّ، وبرز التخوّف من التفاوت الذي سيحدث بين عدد الموارد الاقتصاديّة والعدد السّكانيّ، وتبلورت أفكار ونظريات عديدة في هذا الشأن ولعلّ أبرزها أفكار توماس مالتوس حول السّكان التي جاءت نتيجة للمناقشات التي كانت تدور بينه وبين والده حول هذا الموضوع. فقد كان والده من المتأثرين بالفيلسوف جودوين وآراءه المتفائلة عن الطبيعة البشريّة، حيث يعتبر جودوين أنّ البؤس الذي يعيشه النّاس إنّما يرجع إلى الأنظمة الاجتماعيّة الفاسدة والسّائدة، أمّا الأنظمة الطّبيعيّة فهي خيّرة.

وبالنسبة لمالتوس فقد رأى العكس تماما، فليست النّظم حسب رأيه هي المسؤولة عن البؤس والظلم، وإنما تقع المسؤولية على الطّبيعة ذاتها. فقد لاحظ مالتوس تزايد كلّ من عدد السّكان والموارد الغذائيّة مع مرور الزّمن ولاحظ أنّهما لا يتزايدان بنفس المعدّل، وأكّد أنّ هذا

الاختلال في معدّل الزّيادة يؤدّي إلى ظهور المظالم الاجتماعيّة. ولإبراز فكرته، عمد مالتوس إلى تشبيه زيادة السّكان بمتوالية هندسيّة وشبّه زيادة المواد الغذائيّة بمتوالية عدديّة. وأشار مالتوس إلى أنّ عدد السّكان قادر على المضاعفة مرّة كل 25 عاماً إذا لم تقم عقبات تحول دون ذلك وأنّ الإنتاج الزّراعي لا يستطيع مواكبة هذه الزّيادة.

يؤدّي الإختلال بين الزّيادة في السّكان والزّيادة في المواد الغذائيّة إلى ضرورة تدخّل عوامل خارجيّة من شأنها إعادة التوازن بين نموّ السّكان ونموّ المواد الغذائيّة. وقد بيّن مالتوس في أوّل الأمر أنّ هذه العوامل تتكوّن مّما أسماه بالموانع الإيجابيّة مثل تحديد النّسل والحروب والمجاعات والأوبئة والأمراض(1).

لقد انتقد الكثير من الكتّابَ والأدباء الاقتصاديّون نظريّة مالتوس السّكانيّة، وظلّت نظريّة مالتوس للسّكان معتمدة لفترة طويلة بين الاقتصاديين في العالم، وأدّت إلى حدوث كوارث إنسانيّة، حيث اتّخذت مبرّرًا للإبادة الجماعيّة لدى كثير من الشّعوب، وأجبر أبناء بعض العرقيّات المضطهدة كالسّود والهنود في أمريكا على إجراء التعقيم القسريّ، وإن اتخذّ صورة تعقيم اختياري في ظاهر الأمر. ومثل تجربة التّنمية السّوفياتيّة في روسيا التي استحلّت بدورها إبادة أعداد كبيرة من البشر، يقال (12 أو 15 مليونًا) بحجّة اعتصار

1 – انتوني غدنز، علم الاجتماع، مصدر سبق ذكره، ص627.

التّراكم المطلوب للتّنمية والتّقدم الصّناعي. ويقول آلان تشيس في كتابه (تركة مالتوس) إنّ 63678 ألف شخص قد جرى تعقيمهم قسراً فيما بين عامي 1907 و1964 في أمريكا في الولايات الثلاثين والمستعمرة الوحيدة التي سنّت مثل هذه القوانين. ولكن كان هناك في الحقيقة مئات الآلاف من عمليّات التعقيم الأخرى التي كانت طوعيّة في الظّاهر غير أنّها قسريّة جرت عنوة في واقع الحال(1).

إنّ نظريّة مالتوس نظريّة فاشلة وساذجة، رغم تطبيقها إلاّ أنّ السّكان في تزايد من وقت التّطبيق إلى وقتنا الحاضر، فالنّمو السّكانيّ خاضع لقانون التطوّر وهذا القانون يجري بالسليقة لا أحد يعترضه، فهو كالماء الجارف من السّهول بسبب تجمّع مياه الأمطار الذي يجرف كلّ شيء أمامه أو يعترضه، فضلاً عن أنّ الاكتشافات الاقتصاديّة والطّبيعيّة غيّرت النّظرة بين نموّ السّكان ونموّ الغذاء، فما زال هناك حاجات أساسيّة في الطّبيعة تساعد البشر في مستوى معيشتهم لم تكتشف، فالطّبيعة قادرة على سدّ حاجات البشر، كما أنّ الابتكارات العلميّة والصّناعيّة في الجانب الغذائي رفّعت من مستوى البشر الغذائيّة وهي قادرة على سدّ متطلّباتهم.

---

1 – توماس مالتوس، نظرية السّكان، وكيبيديا الموسوعة الحرة، موقع أنترنت.

في معرض نقده للنّظام الرّأسماليّ يقول المفكّر الدّينيّ محمّد باقر الصّدر(... إنّما المشكلة قبل كلّ شيء مشكلة الإنسان نفسه، لا الطّبيعة، ولا أشكال الإنتاج... ويعطي آية قرآنية تدعم مدعاه(●)... إنّ الله تعالى قد حشد للإنسان في هذا الكون الفسيح كلّ مصالحه ومنافعه، ووفّر له الموارد الكافية لإمداده بحياته وحاجاته المادّيّة، ولكنّ الإنسان هو الذي ضيّع على نفسه هذه الفرصة التي منحها الله له بظلمه وكفره... فظلم الإنسان في حياته العمليّة وكفره بالنّعمة الإلهيّة هما السّببان الأساسيّان للمشكلة الاقتصاديّة في حياته.

ويتجسّد ظلم الإنسان على الصّعيد الاقتصاديّ في سوء التوزيع، ويتجسّد كفره بالنّعمة في إهماله لاستثمار الطّبيعة وموقفه السّلبيّ منها.

فحين يُمحى الظّلم من العلاقات الاجتماعيّة للتّوزيع، ويجنّد طاقات الإنسان للاستفادة من الطّبيعة واستثمارها، تزول المشكلة الحقيقيّة على الصّعيد الاقتصاديّ)(1).

●- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)﴾ سورة إبراهيم.

1 - محمد باقر الصدر، اقتصادنا، (انتشارات دار الصدر) مركز الأبحاث والدّراسات التخصصيّة للشهيد الصدر (قده)، إيران- قم، ط2، 1431، ص380-381.

قبل الدّخول في موضوع التطوّر الكيفيّ سنناقش مفهوم التطوّر عند هربرت سبنسر، فقد كتب في الطّبعة الرّابعة من مؤلّفه (المبادئ الأولى) التي نشرت عام 1880 أنّه (قد افترض خطأ أنّ مبدأ التطوّر ينطوي على ميل ذاتيّ لدى الأنواع للاتّجاه نحو أشكال أكثر رقيّاً، وممّا يشبه ذلك أنّ الكثيرين قد افترضوا خطأ أيضاً مؤدّاه، أنّ التحوّل الذي يكون التطوّر ينطوي على ميل ذاتيّ للمرور في تلك التغيّرات يعبّر عنها مبدأ التطوّر ويعكسها)، وذكر أنّ التقدّم ليس حتمياً في عمليّة التطوّر، فإنّ ذلك يعتمد على ظروف معيّنة. فتتابع حدوث الانحلال أو التحلّل وهي عمليّة مضادة للتطوّر(1).

أرى أنّ مفهوم التطوّر عند سبنسر غير واضح تماماً، وسأوضّح هذا المفهوم بإيجاز دون الدّخول في التّفاصيل، هناك أربع عمليّات في المجتمع تؤدّي إلى حركة البشريّة ككلّ، وهنّ التقدّم والتخلّف والتغيّر والتطوّر، وسنفرّق بينهّن بإيجاز، عندما يتقدّم المجتمع إلى الأمام بفعل إرادة البشر يؤدّي إلى حركة المجتمع بصورة نسبيّة، لأنّ هذا التقدّم لا يعمّ المجتمع ككلّ بل هناك ما يبقى في التخلّف ولا يتقدّم، فضلاً عن أنّ الاختلافات والصّراعات بين البشر يجعلهم يفكّرون في التقدّم والسّيطرة على الآخرين فالقويّ يتقدّم والضعيف يبقى في التخلّف بفعل القويّ، وبالتّالي فإن التقدّم والتخلّف أو النّكوص الاجتماعيّ

1 – نيقولا تيماشيف، نظريّة علم الاجتماع، مصدر سبق ذكره، ص67.

نسبيّن في المجتمع ويحدثان بإرادة البشر، وهذا بدوره ما يؤدّي إلى التغيّر الاجتماعيّ الذي يعني التحوّل أو التبدّل في البناء الاجتماعيّ تقدّماً أو نكوصاً، وكلّ هذه العمليّة تؤدّي إلى التطوّر الاجتماعيّ وهو الارتقاء والتكامل للبشريّة جميعاً. فمثلاً في القرن العشرين حدثت حروب عالميّة مدمّرة فضلاً عن الحروب الصّغيرة هنا وهناك، وأصبحت المجتمعات تعيش معاناة وألما وتدهورا، وقد حثّت هذه الحروب أغلب المجتمعات على التقدّم حتى تنهض بواقعها، فرغم كل المآسي إلا أنّ القرن العشرين حدث فيه تطوّر هائل على عموم البشريّة. وهو ما يدلّ على أنّ عمليّة التطوّر تجري بالسليقة مثلها مثل تطوّر الكون. فتغيّر البشريّة يكون من خلال سعيها إلى التقدّم أو إلى التخلّف بفعل السّيطرة والفساد والأزمات، لكنّ نتيجة هذا التغيّر هو التطوّر والتكامل الشّامل للبشريّة ككلّ.

هذا التطوّر الكيفيّ يختص بالبشر دون غيرهم من الكائنات الحيّة، فالحيوانات تشارك البشر في التطّور الكميّ والبايولوجيّ، فهي الأخرى تتزاوج وتتكاثر ويؤثّر عليها العامل البيئيّ والتغيّرات المناخيّة، فهناك حيوانات تنقرض وأخرى تستمرّ ومنها من يطرأ عليها تغييرات بايولوجيّة في أجسادها. أمّا التطوّر الكيفي فيختص به الإنسان دون الحيوان لأنّ هذا التطوّر يكون في صميم العقل الذي يفتقر له الحيوان، فعالم الحيوان ثابت لا يتطوّر من النّاحية الكيفيّة على طول التّاريخ بينما البشريّة تتطوّر جيلاً بعد جيل.

رغم أنّنا لا نمتلك قرائن أو مصادر أو آثار تدلّ على خصائص المجتمع الأوّل إلاّ أنّنا نعتقد أنّ البشريّة بدأت بمرحلة معيّنة. وأمّا ما جاءت به الماركسيّة أو غيرها عن خصائص المجتمع الأوّل، فقد اعتمدت فيه على الرّحالة الأنتروبولوجيين الذين ذهبوا لدراسة المجتمعات البدائيّة كسكّان الأسكيمو والهنود الحمر، حيث وصف هؤلاء الرّحالة هذه المجتمعات وصفا دقيقاً وعلى ضوء ذلك الوصف استنتجت الماركسيّة بأنّ المجتمع الأوّل شبيه بالمجتمعات البدائيّة في هذا العصر.

لكن كلّ ما نريد أن نقوله هو أنّ المجتمع الأوّل كان في قصور ذهنيّ تماماً، لم يكتشف الأنظمة بعد كان يعيش بالفطرة وكان أيضا مترابطا وواحدا، وبعد أن أصبح هذا المجتمع منتجا للوعي والتفكير أخذ يتطوّر في اكتشافه للزّراعة وصناعة الأدوات البدائيّة وبناء المدن وظهر شكل من أشكال الدّولة وظهرت اللّغات، فضلاً عن ظهور الاختلافات والصّراعات والحروب فيما بين أفراده، وتطوّر المجتمع شيئا فشيئا على هذا المنوال إلى أن وصل إلى هذا التطوّر الذي نعيشه اليوم وهو عصر الحداثة والتكنولوجيا والتكنوقراط(●).

● – أريد أن أنوّه لنقطة معيّنة، وهي أنّ التطوّر البايولوجيّ والكميّ تأثّر أيضاً بالتطوّر الكيفيّ؛ فكلّما تطوّر المجتمع من النّاحية المعنويّة يؤدّي به ذلك إلى التطوّر من الناحيّة الماديّة، وتظهر مع هذا التطوّر أزمات ماليّة وحروب وصعوبة الحياة وتلوّث البيئة... وكلّ هذه المشكلات

درس كارل ماركس التطوّر الاجتماعيّ، وقدّم نظريّة في ذلك تدعى بـ(المادّيّة التاريخيّة) حيث يرجع عمليّة التطوّر إلى العامل الاقتصاديّ. ورغم أنّ هذه النظريّة أثبتت فشلها في التطبيق، لكنّنا نتفق معها في أنّ التطوّر حاصل في المجتمعات ونختلف في تفسير هذا التطوّر، فماركس يعتقد أنّ المجتمعات البشريّة تمرّ في تاريخها بمراحل أو أنظمة خمسة وهي: المشاعيّة البدائيّة، الرّق، الإقطاع، الرأسماليّة، الاشتراكيّة وكلّ مرحلة من هذه المراحل تعدّ تقدميّة بالنّسبة إلى المرحلة السّابقة لها وذلك لحصول الانسجام فيها بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج. ولكنّ هذا الانسجام لا يدوم إلى الأبد، ولا بدّ أن يتضاءل بمرور الزّمن ليحلّ محلّه التناقض. وبذلك يبدأ الصّراع وتنشب الثّورات التي تؤدّي في نهاية المطاف إلى قيام مرحلة جديدة(1).

ولبرتراند راسل كذلك رؤية عن التطوّر التّاريخيّ للمجتمعات البشريّة، فهو يرى أنّه كان هناك أربعة أنواع من العصور في تاريخ العالم. وكان هناك عصور ظنّ فيها كلّ شخص أنّه يعرف كلّ شيء، وعصور لم يعتقد فيها أحد أنّه يعرف أي شيء، وعصور ظنّ فيها

الاجتماعيّة تؤثّر على البناء البايولوجيّ للإنسان كما يؤثّر على نمو السّكان من ناحية الولادات والوفيّات وضحايا الأزمات.

1 – علي الوردي، لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث، ج5، دار الراشد، ط2، بيروت، 2005، ص365–366.

الأذكياء أنّهم يعرفون كثيرًا والأغبياء ظنّوا أنّهم يعرفون قليلاً، وعصور ظنّ فيها الأغبياء أنّهم يعرفون كثيرًا والأذكياء ظنّوا أنّهم يعرفون قليلاً. النّوع الأوّل من العصور هو النّوع الذي يسبّب الاستقرار، والثّاني هو النّوع الذي يسبّب الاضمحلال البطيء، والثّالث هو النّوع الذي يسبّب التقدّم، والرّابع هو النّوع الذي يسبّب الكارثة. كل العصور البدائيّة تنتمي إلى النّوع الأوّل: لم يشك أحد أبدًا في دين القبيلة، أو في حكمة الأعراف القديمة، أو في السّحر الذي يؤمّن المحاصيل الجيّدة؛ وبالتّالي كان الجميع سعداء ما دام لا يوجد هناك سبب لعدم السعادة، مثل المجاعات والحروب.

والنّوع الثّاني يمكن إعطاء مثال عليه في العالم القديم قبل بزوغ المسيحيّة ولكن بعد الانحلال. ففي الامبراطوريّة الرّومانيّة، فقدت الأديان القبليّة خصوصيّتها وقوّتها: عندما بدأ النّاس يظنّون أنّه ربّما يكون هناك بعض الحقيقة في أديان الآخرين، بدءوا أيضًا يظنّون أنّه ربّما يكون هناك بعض الزّيف في أديانهم. استحضار الأرواح الشرقي كان نصف مصدقًا ونصف مكذبًا؛ والبرابرة الألمان كان يفترض أن لديهم فضائل فقدها الجزء الأكثر تحضّرًا من البشريّة. وبالتّالي شكّ الجميع في كلّ شيء، والشّك شلّ محاولات السّعي.

في القرن الثّامن عشر وفي مطلع القرن التّاسع عشر حدث العكس بالضبط. فالعلم والطّريقة العلميّة كانا جديدين، وأعطيا ثقة عظيمة بالنّفس لهؤلاء الذين فهموهما. وحققوا نجاحا وانتصارات كانت جليّة ومذهلة. فمثلا عندما قرّر إمبراطور الصّين أن يضطهد اليسوعيين، حدث أنّهم كانوا على حقّ في مسألة تحديد يوم كسوف الشّمس المتوقّع بينما فلكيّو الإمبراطورية كانوا مخطئين، وعرف الإمبراطور أنّ هؤلاء الرّجال الأذكياء، بعد كل شيء، يستحقّون فضله. وفي انجلترا، هؤلاء الذينّ استخدموا الطّريقة العلميّة في الزّراعة حصلوا على محصولات أكبر من هؤلاء الذين التزموا بالوسائل القديمة، بينما في الصّناعات، المكننة والعمل الجماعي أزاحا المتمسكين بالطّرق القديمة. من ثم جاء إيمان عام بالذّكاء المتعلّم. هؤلاء الذين لا يملكون الذّكاء المتعلّم سمحوا لأنفسهم بأن يتمّ إرشادهم بواسطة الذين يملكونه، ونتج عصر التقدّم السّريع.

أمّا في عصرنا، العكس تمامًا هو الصّحيح فرجال العلم مثل إيدنجتون يشكون إذا ما كان العلم حقًا يعرف أي شيء. الاقتصاديّون يدركون أنّ الطّرق المقبولة لإنجاز أعمال العالم هي جعل الجميع فقراء. رجال السّياسة لا يستطيعون أن يجدوا أيّ طريقة لتأمين تعاون دوليّ أو لمنع الحروب. الفلاسفة ليس لديهم إرشادات ليقدّموها للبشريّة. الوحيدون الذين تبقى لديهم آراء إيجابيّة هم هؤلاء الأغبياء

جدًا الذين لا يعرفون متى تكون آرائهم سخيفة. وبالتالي فإنّ الحمقى يحكمون العالم، والذّكاء لا حساب له في مجالس الأمم.

هذه الظّروف، لو استمرّت، فسوف تُغرق العالم أكثر وأكثر في المحن. التشكّك لدى الأذكياء هو سبب عجزهم، وهو أيضًا نتيجة لكسلهم: "لا شيء ذو قيمة لتفعله"، وهذا يعطيهم العذر ليبقوا في مكانهم. ولكن عندما تكون الكارثة وشيكة، فلن يكون هناك عذر مقبول ليبقوا في أماكنهم، الذّكاء سوف يقضي على تشكّكهم، وإلاّ فسوف يشاركون في تحمّل المسئوليّة في الشّرور التي نأسى لها جميعًا. وسوف يتخلّون عن تذمّرهم الأكاديميّ وتحذلقهم الشّديد، لا شيء سيقولونه سيكون ذو فائدة إلا إذا تعلّموا أن يتكلّموا لغة تقدّرها "الدّيمقراطيّة".

ونفهم ممّا تقدّم أنّ كلاًّ من الكون والمجتمع قد بدءا بمرحلة الطّفولة وتطوّرا شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحا أكثر نظاماً، يقول ستيفن هوكنغ (...إنّ الكون الأوليّ لا يمكن أن يكون منتظماً تماماً لأنّه لابدّ وأن توجد بعض التقلّبات والحالات الشّاذة وغير المنتظمة في مواقع وسرعة الجسيمات ... فالكون قد بدأ بأقلّ حالة من عدم الاتّساق والانتظام... ويكون الكون بعد ذلك قد اجتاز مرحلة من التمدّد والتوسّع)(1).

---

1 – ستيفن هوكنغ، موجز تأريخ الزّمن، مصدر سبق ذكره، ص213.

ومن هذا نستنتج أنّ كلاّ من الكون والمجتمع بدءا بمرحلة طفولة، وبما أنّ الإنسان أصبح مشاركا في الكون والطّبيعة، لهذا فإنّ وجود الإنسان ضروريّ في الكون، كما أنّ الكونَ ضروريّ لوجود الإنسان، والعلاقة بينهما تشاركيّة تكامليّة معتمدة على الإدراك والوعي وسنوضّح ذلك أكثر في مستقبل البحث.

***

إنّ محرّكات الكون وأسباب حوادثه وتطوّراته عموما والمجتمع البشريّ خصوصاً، تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الأسباب الطّبيعيّة العامّة، التي تسمّى عادة بالقوانين الكونيّة، وهي قهريّة التأثير وخارجة عن اختيار الإنسان، وشاملة لسائر الكون بما فيه المجتمع نفسه.

القسم الثّاني: العلّة الغائيّة من وجود الكون والمجتمع.

القسم الثّالث: الأفعال الإراديّة والاختياريّة أو الواعية للبشر أنفسهم، أو لأيّ فاعل مختار عموماً.

وإنّ القسمين الأوّل والثّالث خاضعان خضوعاً كلياً وقهرياً للقسم الثّاني. بمعنى إنّ التطوّر القهريّ الكونيّ والاختياريّ البشريّ يصبّ في الوصول للأهداف الغائيّة من وجودهما.

وبعد أن وضّحنا المماثلة بين تطوّر الكون والمجتمع نستطيع أن نضع عدّة فروق بين المجتمع والكون من ناحية التطوّر.

إنّ الكون في حركته اضطراريّ وقسريّ. بمعنى أنّ السّبب الأوّل، وهو يسمى بالقوانين الكونيّة، هو الذي يحرّكه نحو التطوّر والتكامل وبتعبير آخر أصحّ: إنّ بعض أجزائه تقسر بعضها على الحركة، وليس له حريّة الاختيار.

في حين أنّ حركة المجتمع نحو التطوّر والكمال، متوقّفة على الاختيار وحريّة الإرادة، حيث يصبح الفرد أفضل إذا اختار الفعل الأحسن، كما يصبح هو الأدنى إذا اختار الفعل الأسوء، ولا تكامل من دون حريّة.

إنّ الكون في حركته طويل الأمد جداً، قد لا يمكن قياسه حتى بملايين السّنين، في حين أنّ حركة البشر نحو التطوّر، ليست بذلك الامتداد، ولم يفكّر أحد أو يزعم أنّ عمر المجتمع مثل عمر الكون بأيّ حال.

إنّ الأهداف المتوخّاة للمجتمع يمكن تصوّرها وتحديدها إلى حدّ كبير، بخلاف الأهداف الكونيّة، فإنّها غير محدّدة في أذهاننا. ولعلّ ذلك يعود إلى بعد الأهداف الكونيّة، وقرب الأهداف الاجتماعيّة نسبياً، والغاية كلّما كانت أقرب، كلّما كانت أوضح وأصرح.

إنّنا لا نستطيع أن ندرك فقط الأهداف الاجتماعيّة، بل يمكننا أن ندرك الأساليب والطّرق الفضلى التي دبّرها الخالق للوصول إلى تلك الأهداف. فهي التي تشكّل الأساس الحقيقي لفكرة التخطيط الإلهي العام لتطوّر وتكامل المجتمعات، وهذا بخلاف الأساليب الكونيّة.

فهذه أهمّ الفروق بين الكون والمجتمع. وسنفترض صحّتها ردحاً من الزّمن. لا بمعنى أنّها باطلة في الواقع، ولكن بمعنى أنّها قد تكون مبالغ فيها، وأنّ الفجوة بين المجتمع والكون أقلّ بكثير ممّا تعطيه هذه الفروق. ولعلّ تسلسل البحث كفيل بإبراز هذا المعنى تدريجياً.

من الواضح، بعد الذي قلناه، من تسخير القسم الأوّل والثّالث لمصلحة القسم الثّاني، وهو الأهداف المتوخّاة من وراء وجود الكون... أنّه لا يمكن أن يوجد شيء من التطبيقات في هذان القسمان ناقص عن حاجة تلك الأهداف، كما لا يمكن أن تكون التّطبيقات زائدة أيضاً. إذ أنّ وجودها بهذا الشّكل أو ذاك يعني عدم التوصّل إلى تلك الأهداف بالشّكل المطلوب، وهو مخالف للحكمة وللغرض.

وعدم إمكان النّقصان، يعني أمرين:

الأمر الأوّل: إنّ ساحة الكون العامّة، أو مجموع تسلسل الحوادث في الكون، لا يحتوي على أيّ نقصان، بل كلّ الحوادث الواقعة يحتاجها الكون لا محالة للوصول إلى غاياته.

الأمر الثّاني: أي شيء بعينه ممّا قد يحتاجه الكون في هذا الصّدد، في الواقع، فهو موجود بالضّرورة، ولا يمكن أن لا يكون كذلك. لا يختلف في ذلك الماضي والحاضر والمستقبل.

كما أنّ عدم إمكان الزيادة يعني أمرين موازيين لذينك الأمرين السّابقين:

الأمر الأوّل: إنّ ساحة الكون العامّة، لا تحتوي على زيادة، بل كل الحوادث الواقعة فيه، إنّما هي محتاج إليها فعلاً للوصول إلى الأهداف وليست زائدة بأي حال.

الأمر الثّاني: إن أيّ شيء بعينه ممّا لا يحتاجه الكون في الوصول إلى أهدافه، يعتبر زيادة، ومن ثم لا يمكن أن يكون موجوداً.

ومهما يكن القسم الأوّل قهريّا اضطراياً، ومهما يكن القسم الثّالث وهو اختيار النّاس وأفعالهم، فعالاً وقويّاً، فإنّه لا يمكن أن يخرج عمّ هو مكرّس له وهو إيصاله إلى تلك الأهداف، ومن ثم لا يمكن أن يخرج عن هذه الأمور الأربعة وبتعبير آخر: لا يمكن لشيء في الكون أن يحدث النقيصة أو الزّيادة فيه بالنّسبة إلى إيصاله إلى أهدافه.

ومن أهمّ تطبيقات هذه الفكرة، وجود المجتمع نفسه، وتطوّره وتكامله أيضاً، والتخطيط من أجل هذا التكامل.

إذ يتبرهن ممّا سبق أنّ وجود المجتمع بصفته أحد أجزاء الكون، لا يمكن أن يكون زائداً ولا ناقصاً عن استهداف تلك الأهداف، بل هي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتقديم والتهيئة لتلك الأهداف لا محالة. حالها في ذلك حال كلّ أجزاء الكون الأخرى.

وبالطبع، فإنّ المجتمع المتقدّم قد ألصق بتلك الأهداف العليا، وكان أكثر إنجازاً لها من المجتمع النّاقص... إذن، فينبغي أن تتطوّر وتتكامل المجتمعات بعد أن وجدت ناقصة لكي تقع في طريق تلك الأهداف. ومن هنا يثبت أنّ التمهيد أو التخطيط لتطوّر المجتمع ضمن التّخطيط العامّ لتطوّر الكون والوصول إلى أهدافه العليا.

ومن هنا نعرف أنّ المجتمعات تعيش تخطيطين مقترنين متعاونين لأجل تطوّرهما نحو الأفضل.

التخطيط الأوّل: التخطيط الكونيّ العام للوصول إلى أهدافه البعيدة، تعيشه المجتمعات بصفتها جزءاً من الكون العام. ومن الواضح أنّه لا يخصّها بالتّعيين أو ينتج فيها شيئ بصفتها الخاصة، وإنّما ينتج فيها الكمال، أو يشارك فيه بصفتها جزء من الكون ليس إلاّ.

نعم يصلح هذا التخطيط أن يكون الأساس الذي يُبني عليه التخطيط الثّاني الذي سنذكره، بمعنى أنّه افترض في بناء التّخطيط

الثّاني الفراغ من صحّة التّخطيط الأوّل، تماماً كما تفترض صحّة قانون الجاذبيّة مثلاً عند بناء سيّارة أو ناطحة سحاب.

وهذا التخطيط قسريّ التأثير في المجتمعات اضطراريّ النتائج لأنّه يعتبر، فيما يعبّر عنه، عمّا يسمّى بالقوانين الكونيّة العامّة، التي عرفنا أنّها جعلت لأجل مصلحة الإيصال إلى الأهداف البعيدة.

التخطيط الثّاني: تخطيط خاص بالمجتمعات، قائم على استعمال الاختيار في تطوّرها، بمعنى أنّها تتطوّر وتتكامل نتيجة لأعمالها وتصرّفاتها وردود أفعالها تجاه الوقائع المختلفة. وهذا هو الذي نسمّيه بالتخطيط الإلهيّ العامّ لتطوّر وتكامل المجتمعات.

وهو بدوره يشارك في التّخطيط الأوّل. فإنّ هذا التكامل إنّما يراد من أجل التهيئة إلى الأهداف الكونيّة البعيدة، فيكون التخطيط الثّاني مقدّمة لهذه التّهيئة، فهو مجعول ليكون واسطة غير مباشرة لتلك الأهداف العليا أيضاً.

وهذا الذي قلناه في التّخطيط الكونيّ، ينطبق تماماً على جزئه، وهو التّخطيط العامّ لتطوّر وتكامل المجتمعات. فإنّ الاستهداف الواقعيّ لهذا التطوّر يعيّن أفضل الأساليب والمناهج للوصول إليه، كلّ ما في الأمر، أنّنا إذا كنّا مطّلعين على ذلك فهو المطلوب، كما أنّنا لو كنّا مطّلعين على بطلان بعض الأساليب أو عدم صلاحيّتها

للاستهداف أيضاً، استطعنا نفيه أيضاً. وإن كنّا جاهلين بالأصلح منها والباطل، كان الاستهداف في نظرنا محتملاً لها جميعاً.

ولكنّ الفرق بين التخطيط الكونيّ والتخطيط الاجتماعيّ، من حيث أساليبها، أنّنا نجهل في الأغلب الأسلوب الأفضل للكون، ومن هنا يضطرّ الباحث إلى أن يعيّن كون الأسلوب المعين هو الصّحيح السّاري في الكون. فلو ثبت مثلاً نظريّة الأوتار الفائقة هي السّارية في الكون ثبت تبعاً لذلك أنّها هي الأسلوب الأفضل للاستهداف. إذ لو لم تكن كذلك للزم تبديلها إلى الأفضل، ومن ثمّ لم تكن هي السّارية المفعول في الكون.

ولكن بالنّسبة إلى التخطيط الاجتماعيّ يستطيع الباحث بما أوتيَ من فكرة وعمق، أن يدرك أنّ هذا الأسلوب الأفضل أو ذاك، أو أنّ هذا ليس هو الأسلوب الأفضل. إذ من الواضح أنّ الخصائص البشريّة فرديّة واجتماعيّة، معاشة للنّاس وقريبة المنال إليهم، بخلاف الخصائص الكونيّة، فإنّها بعيدة عنهم وأوسع من إدراكاتهم.

فالأساليب المحتملة لتطوّر وتكامل المجتمعات: كالعلم والدّين والقانون ونظريّات العامل الواحد: الجنسيّة أو الاقتصاديّة، يمكن أن نبرهن على صحّة بعضها ونفي بعضها الآخر. وكل أسلوب برهنا على صحّته يتعيّن أن يكون هو الأسلوب الأفضل والتخطيط المتّبع لتطوّر وتكامل المجتمعات(1).

1- محمد محمد صادق الصدر، اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني (موسوعة الامام المهدي)، مؤسسة دار الحجة(عج) للثقافة، مطبعة ستارة، إيران، 2006، ص396-404.

الفصل الثالث

حركة الكون والمجتمع



نتسائل هنا كيف يتحرك الكون؟ فتأتي الاجابة البديهية هي أنه يتحرك بشكل دائري من خلال حركة الأرض حول الشمس، فقد ظن القدماء أن حركات الأجرام السماوية منتظمة ودائرية، أو مركبة من حركات دائرية (1). فمن وجهة نظر المدرسة الفيثاغورية أن السماء وما فيها من أجرام، لا بد أن تجيء مثلاً كاملاً للجمال الرياضي ولم يكن ذلك ليتحقق إلا إذا تحركت الكواكب في دوائر، ولقد وجد (أرستارخوس) من أهل ساموس، نظرية كهذه إذ وجد أن الكواكب كلها بما فيها الارض تدور حول الشمس في دوائر(2)، أما أرسطو في كتابه (الطبيعة) يقول هناك محرك واحد لا يتحرك، وهو الذي يسبب الحركة الدائرية مباشرة، والحركة الدائرية هي الحركة

---

1 - برتراند رسل، تاريخ افلسفة الغربية، ج1، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012، ص338.

2 - المصدر نفسه، ص220.

الأولية وهي الحركة الوحيدة التي يمكن أن تكون متصلة ولا نهائية(1).

لكن نتسائل مجدداً؟ ما الذي يقود دوران الأرض؟ ما الذي يؤثر على دوران الأرض؟ ما الذي يقود حركة الدوران في المجرات؟

حسب النظرية النسبية لإنيشتاين الذي غير فيها مفهوم الجاذبية عند نيوتن. اكتشف أن الجاذبية لا تكون وفق خطوط مستقيمة بل تأخذ منحى إلتوائي، فالفضاء عبارة عن نسيج مطاطي، وهذا النسيج المطاطي تقع فيه الكواكب والنجوم، وبالتالي أن الجاذبية الموجودة في الكواكب تكون منحنية بأنحناء النسيج المطاطي، الذي يجعل من الاقمار تدور حول الكواكب والكواكب حول المجموعة الشمسية وكذلك الكون، وهذا الانحاء يؤثر حتى على سرعة الضوء، فالضوء لا يتحرك وفق خطوط مستقيمة بل خطوط ملتوية بالتواء النسيج الفضائي، وبهذا ان الزمكان والابعاد الاربعة تكون ملتوية في حقيقة الأمر، فأذا كنت جالس في طائرة فترى الطائرة لا تحلق بخط مستقيم بل تلتوي بألتواء الأرض.. فتأمل.

ويبدوا ان إينشتاين وحده استطاع بنظرته المتفوقة أن يعطي مفهوم لحركة الكون الدائرية من خلال مفهوم الزمكان والابعاد الاربعة. فلم يفكر احد في ان يمزج المكان والزمان معا باسلوب فيزياوي، فالمكان

1 – المصدر نفسه، ص324.

مكان، والزمان زمان. وهذا الدوران ليس في المكان وحدة بل يتضمن الزمان أيضاً، وتأثير الدوران على الزمكان هو اسقاط طول مكاني في الزمان او بالعكس. وكون معادلات مكسويل متناظرة وفق هذا الربط (المكاني – الزماني) الخاص يجعلها مصدر ايحاء عميق(1).

لو استخدمنا ثنائية (الموجة/ الجسم). لأستطعنا أن نصف كل شيء في الكون بما في ذلك الضوء والجاذبية الارضية بدلالة الجسيمات، ذلك ان الجسيمات تمتلك خاصية تدعى الحركة الدائرية. وتنقسم كل الجسيمات المعروفة في الكون الى مجموعتين:

الجسيمات ذات الدوران (نصف) وهي التي تؤلف المادة في الكون، والجسيمات ذات الدوران صفر وواحد واثنين، وهي التي تساعد في ظهور القوى بين جسيمات المادة(2).

هذه الجسيمات تتحرك وفق تردد، وبالتالي كل المادة، وكل شيء من حولنا هو نتاج تردد، وهذا يعني أيضا أذا غيرت هذا التردد، فتركيبة المادة ستتغير ايضاً، هذه الترددات جاءت من صوت الانفجار الكبير، وما زالت ترددات الانفجار الكبير جارية المفعول في الكون، لذلك ان الصوت يجعل من ترداد المادة تتنظم على شكل

---

1 – باول ديفز، القوة العظمي، مصدر سبق ذكره، ص69.
2 – ستيفن هوكنغ، موجز تأريخ الزمن، مصدر سبق ذكره، ص109–111.

دوائر، فالنواة تتألف من تردد عدد من الإلكترونات التي تدور حول مركزها(1).

ويستدل باشلار من هذه النظرية: بأن كل شيء يكون ايقاعياً، فإننا نسير على ترددات، نجلس على ترددات، نحيا في ترددات، ونحن انفسنا ترددات، فبيوتنا مبنية على فوضى التموجات "الترددات" ونحن نجلس على فوضى الترددات، فتطور الفرد في تفاصيله تموجياً فلا خطأ يستمر بدون ضرر، ولا يمكن للنجاح أن يكون متواصلاً بدون مخاطرة(2).

لذا نفهم مما تقدم ان حركة الكون حركة دائرية، لكن نتسائل مجدداً ما شكل هذه الحركة الدائرية؟ أن الحركة الدائرية لا تكون على شكل دائرة ثابته وإلا كيف يتمدد الكون ويتوسع فلا بد ان التكون هذه الحركة الدائرية بشكل لولبي.

هذه الحركة الدائرية (اللولبية) تأتي من خلال الجاذبية والزمن الشيئان الثابتان في الفضاء الكوني (النسيج المطاطي) وبالتالي أن الجاذبية تمتص كل الغازات والغبار الموجودة في الفضاء، وتتجمع

---

1 – م. آرثر فندلاي، على حافة العالم الأثيري، ترجمة: احمد فهمي أبو الخير، ط3، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1945، ص38.

2 – غادة الإمام، جاستون باشلار.(جماليات الصورة)، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2010، ص104.

وتتحرك بشكل دائري وسريع حول مصدر الجاذبية، وكلما تنضغط هذه الغازات والغبار ترتفع درجة حرارتها وتبقى كذلك لملايين السنين. وعند ذلك يولد نجم جديد من خلال هذه العملية. كما ان النجم يحافظ على حركته الدائرية ووجوده من خلال الجاذبية الموجودة في مركزه، لكن عندما يفقد النجم طاقته يأخذ بالانحلال، فعند ذلك لا يستطيع أن يحافظ على وجوده، فينهار على نفسه بفعل الجاذبية فتتقلص طباقته وتطمس للأسفل او للمركز وهذا الانضغاط يؤدي الى انفجاره وتناثره في الفضاء، لكن تبقى الجاذبية عالية جداً في مركز النجم الميت وتكون مطلقة بحيث لا تدع شيء يهرب منها وتبتلع كل شيء قريبٌ منها حتى الضوء، فهذه الجاذبية تسمى بـــ(الثقب الأسود). ومن ثم تتجمع المواد المسحوبة أليه من الغازات والفوتونات وتدور في مركزه بشكل سريع، فجاذبيته تسحب حتى النجم القريب منه بشكل تدريجي فتفتته وتجعل منه عبارة عن غبار وغاز مسحوب الى مركز الثقب، وبالتالي يولّد الثقب الاسود حرارة وضغط عاليتين حتى تتم ولادة نجم جديد في الكون(1).

لذلك أن كل من سول بيرماتر، آدم رس، وبراين سميث. الذين حصلوا على جائزة نوبل بسبب اكتشافهم ان الكون يتسارع بالتمدد

1 – ميتشيو كاكو، فيزياء المستحيل، ترجمة: د. سعد الديم خرفان، عالم المعرفة، 2013، ص242

والتوسع ولاحظوا ذلك من خلال الانفجار والولادات النجمية، واكتشافهم هذا غير النظرة القديمة التي تقول ان الكون يتوسع بتباطئ. لذا بما أن الكون يتوسع ويتمدد فتكون حركته بشكل دوائر لولبية.

ووفق المتسلسلة الرياضية التاريخية التي تسمى (فيبونانتشي(•)) التي نستنتج منها ان الاشياء في الكون هي لولبية الشكل، فبداية متسلسلة (فيبوناتشي) تبدأ 13،8،5،3،2،1،1. وحساب المتسلسلة تبدأ بـــ1،1 ثم لتحصل على الرقم الموالي تضيف العددين السابقين أذا 1+1=2، 1+2=3، 2+3=5، 3+5=8، وهكذا دواليك، فكلما يصعد الرقم يأخذ شكل لولبي، إلى ان تعطينا نسبة تدعى بالنسبة الذهبية (Phpi) وهي نسبة رياضية، قيمتها تقريباً 1.618، الرقم الذي يثبت وجود تصميم ذكي، خالق للكون نجد ان لهذه المتسلسلة عدة انواع من التطبيقات، انها تصف العديد من الاشياء في عالمنا، فهذه النسبة يمكن ملاحظتها في الطبيعة، وهي تدل على ان الكون خلق بتصميم ذكي وليس بالصدفة، كما يدعي

• – ليوناردو فيبوناتشي (1170م – 1250م) هو عالم رياضيات إيطالي؛ اعتبره البعض "أكثر رياضياتي غربي موهوب في العصور الوسطى" عرف فيبوناتشي للعالم الحديث بفضل مساهمته في نشر طريقة الأرقام الهندية–العربية لأوروبا، خاصة ضمن كتابه الذي نشره في القرن الثالث عشر بعنوان كتاب الحساب (Liber Abaci)؛ وكذلك عُرف بفضل متتالية الأعداد، متتالية فيبوناتشي التي سميت نسبة له، والتي لم يكتشفها بل ذكرها كمثالٍ في كتابه Liber Abaci.

البعض. فذيل حصان البحر اللولبي هو المعادلة الرياضية. لـ 1.618. نفس الشيء للاصداف البحرية، وكل انواع الورود. والنباتات، والحلزونات، وفي العواصف كذلك تجد الرقم 1.618 على شكل لولبي، والاعصارات القاتلة. وفي الكون في المجرات والكواكب. في جسم الإنسان تجد النسبة ذاتها تدعى بالنسبة الالهية او الرقم الذهبي وهو مقياس للجمال. فهل كنت تعلم أن المسافة من اصابع قدميك إلى سرة البطن هي اطول بنسبة 1.618 من المسافة من سرة البطن إلى قمة الرأس؟ وتوجد في قياسات الجسم وفي حمض النووي. وفي بصمات الاصابع، وفي كل صنوبر توجد 8 لوالب يمكن مشاهدتها تصعد إلى الرأس في اتجاه عقارب الساعة. بينما 13 لولب في اتجاه عكس عقارب الساعة. لذا ان حركة الكون هي حركة دائرية بشكل لولبي(1).

كما لو لاحظت المجموعة الشمسية كيف تتحرك مع بعضها في الفضاء لوجدتها تتحرك على شكل لولبي باستمرار، لأن الكواكب الشمسية تخضع لحركة الشمس نفسها التي هي بدورها تتحرك لولبياً حول النجوم، والنجوم كذلك تتحرك لولبياً تحركاً خاضعاً لمجرة درب التبانة، وهذه المجرة بدورها تخضع حركتها اللولبية للمجرات

---

1 – سلسلة المعارف القديمة، ج2، فيلم على اليوتيوب، موقع انترنت.

الاخرى، وبالتالي ان الكون بمرته وبما فيه يتحرك لولبياً لأن بهذه الحركة اللولبية يضمن بقاءه.

***

نتسائل هنا وفق المماثلة الكونية، كيف يتحرك المجتمع؟ إن المجتمع من البديهي يتحرك وإلا كيف جاء هذا التطور والتكامل إذا لم يسبقه حركة اجتماعية، وحركة المجتمع تختلف عن حركة الكون لأن المجتمع له الحرية والاختيار والارادة في حركته بينما المجتمع تقوم حركته وفق قوانين قهرية عليه.

لذا بسبب الوعي والفكر الموجود لدى المجتمع جعل من حركته مختلفة الأشكال، فوفق التغيير الاجتماعي الذي هو نتاج الحركة يكون هناك تداول بين الناس على مر الأيام، فالتحول التي يطرء علي المجتمع احياناً يكون تقدم وأحياناً تخلف أو نكوص وكل هذا يخضع حسب ظروف أجتماعية سبق وأن شرحناها.

لكن وفق قاعدة ان المجتمع جزء لا يتجزء من الكون لا بد ان يكون حركته مماثلة لحركة الكون، بالرغم من وجود إدراك للمجتمع لكن هو لا يتسطيع ان يتخلص من القوانين الكونية، فالمجتمع بفعل الجاذبية الكونية يستطيع أن يبقى في الحياة على الأرض، يقول جورج بالانديه (أن تاريخ البشر يشبه إلى حد ما تاريخ الكرة الأرضية، الذي ينتج طبقات جيولوجية متراصة فوق بعضها بعضاً، صحيح إن تاريخ

البشر يتحرك ويتغير بسرعة أكبر(...) ولكنه يولد هو الآخر أيضاً طبقات سميكة ينبغي ان تكشفها العلوم الاجتماعية)(1). لذا نحن وضحنا ان الكون يتحرك وفق حركات دائرية وهذا الحركات الدائرية تكون على شكل لولبي بفعل تمدد الكون وتوسعه. فهل المجتمع يتحرك وفق تلك المماثلة؟.

أن نظريات التغيير الاجتماعي الكلاسيكي تحدثنا بأن هناك حركة اجتماعية دائرية لذلك سميت بالنظريات الدائرية، فأبن خلدون يرى ان المجتمعات تتحرك وفق نظام صراع دائري بين البداوة والحضارة، فكلما ترهلت الحضارة وضعفت جاءت القبيلة واقتحمتها لأنها تتمتع بعصبية كبيرة، ومن ثم تأخذ القبيلة زمام المبادرة في الدولة الحضارية... وهلم جرا.

هذه الدورة عند ابن خلدون مثل عمر الأنسان وتتكون من اجيال، يقول(أن الدولة في الغالب لا تعدو اعمار ثلاثة اجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون اربعين)(2).

ويمثل النظريات الدائرية كذلك (بيتري) في كتابه ثورة الحضارة 1912 وشبنجلر في كتابه سقوط العالم الغربي 1981 وتوينبي في

---

1 – فارج مسرحي، الحداثة في فكر محمد أركون، مصدر سبق ذكره، ص91.

2 – حيدر ابراهيم علي، التغيير الاجتماعي والتنمية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1982، ص114.

كتابه دارسة التاريخ (1934- 1939- 1954) وسوركن في كتابه الديناميكا والثقافة (1937- 1941) وكروبر (1944). ولا غرو أن معظم هذه الاتجاهات قامت على فكرة (عجلة الزمن) بشكل أو بآخر.

فسوركن صور المجتمع الشمولي من خلال الثقافة المثالية والحسية والصورية، فالمجتمعات تتذبذب بين الحسية والصورية وتعود الى المثالية من جديد، فالمثالية هي توليفية بين الحسية والصورية.

أما توينبي يرى الدائرة من خلال النمو والانحلال الحضاري بشكل دائري، فهناك حضارة تتحلل بسبب عدم قدرتها على استجابة الحداثة وهناك حضارة تنمو بأساليب حداثوية، فالحضارة النامية تقضي على الحضارة التي اصابها العقم.

لكن لو جأنا إلى ماكس فيبر فهو يعطينا ثغرة لنقد النظريات الدائرية الاجتماعية، فيجمع فيبر بين الاتجاه الدائري والاتجاه المستقيم في تفسير الحركة الاجتماعية. ويرى أن النمو الاجتماعي يسير وفق شكل دائري أما النمو الثقافي فهو يسير في خط مستقيم، فالنمو الاجتماعي دائما ما يصل الى نقطة في اثناء تطوره حيث يفقد البناء القديم شرعيته، ومن ثم يتولى قائد عملية بناء جديد ويستقر النظام الجديد حين تتحول تطورية القائد إلى روتين. وبمرور الزمن يفقد النظام الجديد شرعيته ثم تتاح الفرصة لقائد مجدد.. وهكذا. أما النمو

الثقافي فهو يسير في خط مستقيم بمعنى أن الحركة التطورية تكون دائما في اتجاه اكثر عقلانية وتوافق داخلي(1).

أن فيبر ادخل الحركة التطورية في المجتمع بينما الآخرين اغفلوا هذا الجانب وصوروا ان المجتمعات تتحرك دائرية بمعنى التاريخ يعيد نفسه، فالمجتمع لا يدور مثل الناعور او الطاحونة فهو ليس ثابت بل يتغير من حال إلى حال، وهذا التغير بفعل الإرادة البشرية، لذلك ان الحركات الدائرية ربما تنجح وفق الزمان والمكان أي حركات نسبية، بينما المجتمع الشمولي الكلي لا يتحرك بشكل دائرة.

أن النقد الذي يوجه لهذه النظريات الدائرية هو أنها تأخذ احداث كبيرة في زمانها التاريخي أي حقب طويلة أو جغرافيا أي مناطق شاسعة ففي معالجتها للوحدات الحضارية تخرج بعامل أو سبب واحد من حضارة كاملة وتحاول اطلاق احكام وتعميمات تعسفية على حضارات باكملها. وهي لا تساع ميدانها وعدم دراستها لوحدات صغيرة وانعدام الدراسات الامبريقية كل هذه الاسباب جعلت منها نظرية غير صالحة بشكل عام.

واضح ان اغلب اصحاب نظرية الدورات الحضارية والثقافية قد عاشوا في فترات تاريخية مضطربة وغير مستقرة لذلك انصب حديثهم

1- إس. سى. دوب، التغير الاجتماعي، ترجمة: د. عبد الهادي الجوهري، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1985، ص74-77.

على السقوط وانحلال الدول والحضارات كذلك تأثرت كتاباهم برغبة هروبية من واقعهم وابن خلدون احسن مثال لذلك، كذلك شبنجلر وتوينبي وسوركن فقد كانت كتاباهم في فترات قلقة ومضطربة(1).

ونتسائل مجدداً، هل تتطور كل المجتمعات باتجاه دائري أم أن تاريخها يتبع مساراً لولبياً موجه؟ إذا كانت الفرضية الأولى صحيحة، فمن الممكن أن تكرر الإنسانية أية ممارسة إجتماعية أو سياسية من الماضي:

فالعبودية يمكن ان تعود، أما التاريخ اللولبي الموجه فهو العكس من ذلك يفترض إلا لا يتكرر أي شكل اجتماعي، بعدما جرى تجاوزه، من قبل المجتمع نفسه، حتى ولو كان بإمكان مجتمعات أخرى مختلفة وفي درجات متباينة من التطور تكرار ترسيمة التطور عينها. يقول اوغسطين (ليس سير التاريخ دائرياً كما يفترض بعض الفلاسفة، فالمسيح قد مات مرة واحدة من أجل خطايانا)(2).

---

1 – حيدر ابراهيم علي، التغيير الاجتماعي والتنمية، مصدر سبق ذكره، ص121.

2 – برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج2، مصدر سبق ذكره، ص87.

ويرى الفيلسوف التاريخي "فيكو(●)" أن التقدم الاجتماعي يسير في شكل دائري معاود في إطار لولبي أو حلزوني (الارتداد المغاير) بحيث كل دورة تعلو الدورة السابقة وتكون أنضج منها ثقافياً. حيث أسس فكر جديد في التاريخ أسماه بـ(العلم الجديد)، وطبقاً لمسلمته رقم (71) من مسلمات العلم الجديد التي تنص على (أن العادات الفطرية لا تتغير كلها دفعة واحدة، ولكن تتغير بالتدريج وتستغرق فترات طويلة من الزمن) معنى هذا أنه لا توجد حدود فاصلة بين المراحل التاريخية الثلاث(●)، ولكن هناك امتزاج طبيعي بينها، فنجد في كل مرحلة أثراً للمرحلة التي سبقتها(1). فتعود الدورات التاريخية مرة أخرى بصورة أكثر تقدماً لتسير الشعوب في نفس المسار، ولكنها

● – جامبا تيستا فيكو فيلسوف ايطالي (1668-1744) أسس علم جديد للتاريخ أسماه (العلم الجديد) وفيكو مثل أبن خلدون اهمله أهل عصره فهو يعتبر المؤسس الثاني لعلم الاجتماع بعد أبن خلدون من وجهة نظري، فقد درس التاريخ وإسّسَ قواعد اجتماعية لفهم حركة المجتمع في التاريخ وفق المنهج الاستقرائي، وقد تأثر به اوكست كومنت ونقل عنه قانون المراحل الثلاث لتطور المجتمع كما تأثر به كارل ماركس في دراسته للتاريخ، لكن من المؤسف أن هذا الفيلسوف والمؤرخ قد اهمل من قبل علماء التاريخ والاجتماع والفلسفة والانثروبولوجيا والقانون ولم يحظى بالاهتمام الكافي من قبل الباحثين لدراسته فكره وسيرته الذاتية الذي لها منفعه كبيرة للمجتمع والاوساط العلمية.

● – ان تاريخ البشرية مر بثلاث مراحل حسب ما يرى فيكو، المرحلة الالهية، المرحلة البطولية والمرحلة البشرية.

1 – عطيات محمد أبو السعود، فلسفة التاريخ عند جامبا تيستا فيكو، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006، ص100-101.

لا تبدأ من نفس النقطة الأولى بل من نقطة أكثر تقدماً. فالتاريخ البشري لا يعيد نفسه وإنما يسير دائما نحو التقدم(1). ولا يتحرك بشكل دائري منتظم وإنما يتحرك بشكل حلزوني لولبي(2). ذلك لأن الدورات التاريخية لا تعود بشكل دائري بل تعود بشكل حلزوني متقدم بحيث يمكن القول بإن اطلاق إسم النظرية الدورية على نظرية فيكو هي تسمية غير دقيقة لأن مفهوم النظرية الدورية يعني أن يعيد التاريخ نفسه وأن يبدأ من نفس البداية التي انطق منها. ولكن الأمر مختلف عند فيلسوفنا. فالتاريخ لا يسير في خط دائري وإنما في شكل حلزوني صاعد بحيث تأتي كل دورة تاريخية بالجديد(3).

إذا لم يكن التاريخ قابلاً لتكرار نفسه، فيجب ان توجد أوالية واحدية وثابتة أو مجموعة من الأسباب الاولية التاريخية، تؤمن التطور باتجاه وحيد وتحافظ على ذاكرة العصور السابقة في الحاضر. أن النظريات الدورية للتاريخ لا تستبعد أمكانية التغير الاجتماعي والانتظام المحدود في التطور، ولكنها لا تتطلب مصدراً وحيداً للسببية التاريخية، ويجب ان تحوي أيضاً عملية انحلال يجري بواسطتها محو أي وعي للإنجازات السابقة كلياً، لأن بدون أمكانية النسيان التاريخي

---

1 - المصدر نفسه، ص144.

2 - المصدر نفسه، ص189.

3 - المصدر نفسه، ص198-199.

الشامل فإن كل دورة متتالية تبني، حتى بشكل جزئي، على تجارب الدورات السابقة.

وفي محاولة أولى لفهم الأوالية التي تعطي للتاريخ توجهه، فلنسير على خطى فونتنيل وبيكون ولنسلم بالمعرفة كمفتاح لأتجاه التاريخ- خاصة معرفة العالم الطبيعي الذي يمكننا بلوغه بالعلم. وفي الواقع إذا استعرضنا مجمل الاكتشافات الإنسانية، فإن الاكتشاف الوحيد بينها. وهو ما يحوي الاجماع حوله دون التباس، الذي له طابع تراكمي وموجه هو علم الفيزياء الحديث.

إن بعض وقائع الطبيعة التي بقيت خافية على العقول النيرة في الأجيال السابقة، أصبحت اليوم في متناول طالب من السنة الأولى الجامعية لمجرد كونه ولد متأخراً. فالفهم العلمي للطبيعة ليس دورياً لأن الإنسانية لا تعود دورياً إلى حالة الجهل البدائية ذاتها، ونتائج علم الفيزياء الحديث لا تخضع لنزوات الإنسان وحدها. فالكائنات الإنسانية حرة في أن تعمل في بعض فروع العلم بدلاً من الفروع الأخرى، وهي تستطيع بالتأكيد تطبيق نتائج هذا البحث كما يحلو لها، ولكن ليس المستبدين ولا البرلمانات رفض قوانين الطبيعة مهما كانت رغبتهم بذلك.

لقد تراكمت المعرفة العلمية خلال زمن طويل جداً وكان لها تأثير ثابت على تكوين الطابع الأساسي للمجتمعات الإنسانية، وحتى وإن لم نتبين ذلك دائماً. وهكذا، فالثقافات التي كانت تملك معدن الحديد والزراعة كانت مختلفة جداً عن تلك التي لا تعرف إلا أدوات المعدن القلوي (ليتيوم) واقتصاد الصيد والقطاف. ولكنه حدث تغير نوعي في العلاقة بين المعرفة العلمية والسيرورة التاريخية مع تقدم علم الفيزياء الحديث، أي منذ اكتشاف الطريقة العلمية من قبل اشخاص مثل ديكارت، بيكون، وسبينوزا في القرن السادس والسابع عشر، فإمكانية السيطرة على الطبيعة، التي فتحتها الفيزياء الحديثة، لم تكن سمة مشتركة بين جميع المجتمعات، ولكنها اكتشفت في لحظة تاريخية معينة من قبل بعض الأوربيين. إلا أن الطريقة العلمية ما أن اكتشفت حتى أصبحت ملكاً مشتركاً شاملاً لكل إنسان مزود بعقل، وهي في القوة بمتناول كل فرد وذلك دون الأخذ بالاعتبار الفوارق في الثقافة أو في القومية، لقد ولد اكتشاف الطريقة العلمية تقسيماً أساسياً وليس دورياً للأزمان التاريخية إلى حقبات ما قبل وما بعد. وعندما تم الاكتشاف قدم التطور التاريخي والمتواصل للفيزياء الحديثة أوالية توجهٍ تفسر فعلاً أوجه التطور التاريخي التالي(1).

---

1 – فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة: د. فؤاد شاهين وآخرون، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1993، ص93-95.

إن الفيزياء الحديثة تفرض ذاتها على الإنسان شاء أم أبى: فمعظم الأمم لا تستطيع أختيار رفض العقلانية التكنولوجية للحداثة إن أرادت أن تحافظ على أستقلالها الوطني. هذا برهان على حقيقة الملاحظة الكانطية التي بموجبها تنتج التغيرات التاريخية إذا جاز التعبير عن (عدم القابلية الاجتماعية لمجتمع الإنسان): فالعدوانية بدلاً من التعاون هي التي تقود الإنسان أولاً إلى العيش في مجتمع، ومن ثم إلى تطوير إمكانيات هذه المجتمعات بشكل أكثر كمالاً.

الفيزياء الحديثة قادرة أيضاً على أحداث التغيرات في مجرى التاريخ بفضل التغلب التدريجي على الطبيعة الذي تسمح به بهدف إشباع الرغبات الإنسانية(1).

لذلك اخترنا الفيزياء الحديثة كإوالية محتملة لتشمل تغيرات التوجيه للتاريخ، لأنها النشاط الاجتماعي الوحيد المنتشر على نطاق واسع والمعترف به بشكل شمولي على أنه تراكمي، أذاً فهو موجه. إن التطور التدريجي اللولبي لعلم الفيزياء الحديث يمكن من فهم تفاصيل كثيرة خاصة بالتطور التاريخي.

لكن رغم التطور اللولبي للبشرية بفضل الفيزياء الحديثة إلا أن التخيلات العلمية تحتمل التدمير الكارثي لحضارتنا التقنية الحديثة وعودة هذه الحضارة إلى البربرية، خاصة منذ نهاية الحرب، ومع

---

1 – المصدر نفسه، ص97.

اختراع الأسلحة النووية التي بدأت أنها جعلت هذا الاحتمال ممكن الحصول. ولكن البربرية التي قد تقع فيها الإنسانية، حسبما تشير هذه المؤلفات باستمرار، ليست مجرد انبعاث للأشكال القديمة من التنظيم الاجتماعي، وإنما هي خليط عجيب من الأشكال الاجتماعية القديمة والتكنولوجيا الحديثة، على صورة هولاء "الأباطرة" و"النبلاء" الغربيين الذين نراهم يتنقلون بين الأنظمة الشمسية في مركبات فضائية. إلا أنه إذا كانت افتراضاتنا حول العلاقات المتبادلة بين علم الفيزياء والتنظيم الاجتماعي الحديثين صحيحة، فإن مثل هذه المنتجات (الخليطة) لا حظ لها في الاستمرار طويلاً: إذ أنه بدون هدم أو رفض الطريقة العلمية ذاتها، قد ينتهي علم الفيزياء الحديث بالضرورة إلى إعادة إنتاج ذاته ويؤدي إلى إعادة خلق أوجه عديدة من العالم الاجتماعي الحالي الحديث والعقلاني(1).

ان التاريخ الدائري حقاً غير قابلاً للتصور إلا إذا قبلنا مبدئياً بإمكانية الزوال الكلي لحضارة معينة دون أن تترك أي أثر مهما اختلف نوعه على الحضارات التي تليها. لقد حدث هذا فعلاً قبل اختراع الفيزياء الحديثة. ولكن هذه الاخيرة تملك من القوة للخير كما للشر بحيث أننا نستطيع حقاً أن نتسائل إذا كان بالامكان نسيانها أو إزالتها تماماً في يوم من الأيام دون إبادة الجنس الإنساني بالذات،

---

1 – المصدر نفسه، ص102.

إذا كان تأثير العلوم الطبيعية الحديثة أمراً لا يمكن العودة منه، فأن اتجاه التاريخ كذلك ونتائجه المتنوعة كلها في المجال الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي ليست أقل قابلية للأرتداد بالمعنى الأساسي للكلمة(1).

ومع هيمنة الفيزياء الحديثة من الصعب أن نعتمد فكرة أن التاريخ هو دوري. هذا لا يعني عدم وجود تكرار في التاريخ. فالذين قرأوا التاريخ يعرفون جيداً الموازاة القائمة في التناقس القديم بين أثينا واسبرطة والحروب الباردة القريبة العهد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. والذين لاحظوا عظمة وانحطاط بعض القوى العظمى في العصور القديمة وقارنوا هذه الظواهر بالعهود المعاصرة لم يخطئوا في إيجاد بعض التشابه وبعض التماثل، ولكن تكرار بعض الصور التاريخية الدائمة ليس متعارضاً مع التاريخ الموجه والديالكتيكي واللولبي إذا علمنا أن هناك ذاكرة وحركة في الوقت نفسه بين تلك التكرارات. فالديمقراطية الاثنية ليست الديمقراطية الحديثة. وروسيا ستالين لم تكن ابداً المعادلة المعاصرة لإسبارطة، رغم التشابه الذي يمكن أن نسجله. فالتاريخ الدوري كما كان يتصوره أفلاطون وأرسطو يتطلب كارثة عالمية كبيرة جداً لتمحو كل ذكر للأزمان الغابرة. حتى في عصر الأسلحة النووية وسخونة الكرة

---

1 – المصدر نفسه، ص107.

الأرضية، من الصعب أن نتصور كارثة قادرة على تدمير فكرة الفيزياء الحديثة بالذات(1).

1 – المصدر نفسه، ص137–138.

الفصل الرابع

قوى الكون والمجتمع



اقصد بالقوى هنا قوة القانون الذي يتحكم في الكون والمجتمع، فالقانون الكوني ضروري وقهري على الكون، أما القانون الاجتماعي(●)، هو قرار إنساني محظ بشكل من الأشكال، لكن في نهاية الأمر أن القانون الاجتماعي لا يخرج عن القوانية الكونية، لأن المجتمع جزء لا يتجزء من الكون لذلك قوانينه وقواه لا تخرج من القوى الكونية، رغم ان وجود الادراك والوعي والحرية لدى المجتمع لكن هذه الامتيازات التي يمتاز بها المجتمع خلاف الطبيعة لا تجعله يخرج عن قانون الطبيعة والكون، لأن بخروجه يفنى على وجوده،

● – هناك أشكالية في القوانين او القواعد الاجتماعية، فالنظريات الاجتماعية لم تحدد قوانين ثابته لهذه اللحظة في علم الاجتماع بخلاف العلوم الاخرى وهذه من المشاكل التي يواجهها علم الاجتماع، وبسبب الاختلافات النسبية بين المجتمعات جعل من علم الاجتماع بدون قانون شامل بل قواعد اجتماعية، لكن هنا اطلقنا عبارة القانون الاجتماعي لأننا ننظر الى المجتمع ككل في هذا البحث، فرغم اختلاف المجتمعات في ما بينها الا انها تؤدي نفس الغرض الذي يؤديه الكون من الناحية القانونية في نهاية الامر، وهذه هو الذي اريد ان أوضحهُ.

فمثلاً ان الانسان لا يستطيع ان يرمي بنفسه من مكان عالي لأن قانون الجاذبية سيقضي عليه لذا هو يحكّم ادراكه ووعيه وفق القوانين الكونية حتى يكون هناك بقاء وجودي مستمر.

ونتسائل هنا لماذا وجدت القوانين الطبيعية والظروف الأولية للكون والثوابت الطبيعية التي سمحت بنشوء الحياة؟ يوجد جوابان أساسيان هما: أولاً: نشأ الكون بطريقة معينة لكي يضمن وجود كائنات حية كالإنسان، لذا اتخذ الكون مضامين قوانينه وثوابته الطبيعية لأن بها فقط من الممكن نشوء الحياة. وجد هذا التفسير في علم الكلام كما يوجد هو نفسه في العلم المعاصر لكنه يعاني من التسليم بأنه توجد آلية عقلية أو واعية خططت لتطور الكون ووجوده. ثانياً: توجد عوالم عديدة تمتلك قوانين وثوابت مختلفة وبذلك لا عجب من وجود عالم كعالمنا يحتوي على قوانينه وثوابته بالذات فيسمح بنشوء الحياة. لكن هذا التفسير يعاني من إكثار الموجودات من أجل تفسير حقيقة نشوء الحياة، فهو يقول بوجود عوالم عدة. أما إذا تمكنا من تفسير ما أراد تفسيره من دون تلك العوالم، فلن تجد حجة للقبول بوجود الأكوان العديدة.

التفسير المقبول (أي الممكن بمعنى آخر) هو الثالث ويقول: إنه من غير الممكن للقوانين الطبيعية أن تحتوي على مفاهيم الحياة والعقل والمعرفة. فالمفاهيم الأخيرة تنتمي إلى نوع معين من المفاهيم يختلف عن

نوع المفاهيم المستخدمة في مضامين القوانين الطبيعية. تستخدم القوانين الطبيعية مفاهيم الكتلة والمادة والقوة وسرعة الضوء...إلخ وتربط فيما بينها، أما مفاهيم العقل والمعرفة والحياة فلا تنتمي إلى المفاهيم العلمية الأخيرة القائمة في المعادلات الفيزيائية أو الكيميائية. هذا الخلاف بين النوعين السابقين للمفاهيم سببه أن مفاهيم العقل والمعرفة والحياة تستخدم لوصف أنفسنا والآخرين وتفسير تصرفاتنا أما مفاهيم العلم كالكتلة والطاقة فتستخدم لوصف الكون المادي (خارجنا) وتفسره. من هنا لن نجد قانوناً طبيعياً يقول: إذا وجدت هذه الظروف الفيزيائية أو تلك، إذاً ستنشأ أو لن تنشأ الحياة والعقل والمعرفة. إذاً قوانين الطبيعة مهما كانت تجعل من الممكن فيزيائياً نشوء الحياة والعقل والمعرفة ولذا نشأت. أي لقد نشأ العقل ونشأت الحياة والمعرفة لأن نشوءها لا يناقض أية قوانين للطبيعة بل مهما كانت القوانين فسوف تسمح بوجود الحياة والعقل والمعرفة(1).

يقول اسبينوزا في معرض كلامه عن القانون الكوني والاجتماعي (القانون على الاطلاق هو اندراج جميع الأفراد في مجموعة معينة تحت قاعدة واحدة. ويعتمد القانون إما على الضرورة الطبيعية أو على القرار الإنساني. ويعتمد القانون على الضرورة الطبيعية عندما يصدر عن الطبيعة نفسها، ويعتمد على القرار الإنساني عندما يجعل الحياة

1 – حسن عجمي، السوبر حداثة، مصدر سبق ذكره، ص111-112.

اكثر ملاءمة وأمناً، أو عندما يصدره الناس لأنفسهم أو للآخرين لأسباب أخرى. فاذا اصطدمت اجسام كبيرة بأجسام صغيرة، فانها تفقد من حركتها بقدر ما تعطي، هذا القانون شامل يصدر عن ضرورة في الطبيعة، وعندما يتذكر إنسان شيئاً ما ويتذكر شيئاً آخر مشابهاً، هذا قانون شامل يصدر عن ضرورة في الطبيعة الإنسانية. أما اذا تنازل الناس عن حقوقهم طوعاً أو اختياراً، فإن ذلك ينتج عن قرار إنساني، إلا أن كل شيء محدد طبقاً لقوانين الطبيعة الشاملة، لأن الانسان جزء من الطبيعة وقدرها)(1).

لذا ان الأرادة البشرية هي مستقلة عن القوانين الكونية لكنها لا تخرج على تلك القوانين، لأن الجزء لا يمكن ان يخرج عن الكل وان كان مستقل في قرارته، أن القانون الطبيعي للمجتمع يأتي اولاً ومن ثم يأتي القانون الإنساني ينظم القانون الطبيعي للمجتمع، بمعنى أن المجتمع هو وجود طبيعي أن الافراد ينجذبون طبيعياً مع بعضهم، وعندما ينجذبون ويكوّنون المجتمع يأتي القانون الإنساني ينظم طبيعتهم الاجتماعية الذي فرضه القانون الطبيعي عليهم، لذا ان هذا الفصل معني بالمماثلة بين المجتمع والكون في خصوص القوى التي تتحكم بكليهما.

---

1 – اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2008، ص57.

اولاً: الجاذبية الكونية والاجتماعية:

ان قوة الجاذبية هي اول القوى الاربعة التي تتحكم بالكون، وجهزت بخاصية متميزة عن بقية القوى. اذ تزداد شدة هذه القوة بتجمع الذرات والجزئيات حتى تصل في النهاية الى درجة تتغلب بها على القوى الاخرى، فانها هي القوة الوحيدة من بين هذه القوى التي يصل تأثيرها الى مسافات بعيدة وسحيقة في اعماق الكون. فالقوة التي تمسك القمر حول الارض، والارض حول الشمس، والنجوم بشكل مجرات، والمجرات بشكل كومة أو مجموعة من المجرات ...الخ، القوة التي تفعل كل هذه الامور هي قوة الجاذبية.

ان قوة الجاذبية الموجودة داخل الذرة ضئيلة جداً بحيث يمكن اهمالها ولكن عند تجمع الذرات وكذلك الجزيئات بعضا مع البعض الآخر، فان هذه القوة تزداد شيئاً فشيئاً وتتضاعف حتى تصل الى مرتبة هائلة من القوة بحيث تستطيع – كما في حالة الثقوب السوداء – ابتلاع النجوم العملاقة بل وحتى ابتلاع الضوء والزمن ايضاً(1).

وبفعل هذا القانون يجعل الموجودات الارضية مجذوبة الى الارض وخلاف هذه الجاذبية يجعل من الموجودات تتساقط وتتناثر في الفضاء ويفنى عليها، لذلك عن طريق هذا القانون تبقى الحياة محفوظة

---

1 – عبد الودود رشيد محمد، شهادة الكون، مصدر سبق ذكره، ص56.

للموجودات الارضية، والمجتمع جزء من هذه الموجودات المتأثر بقانون الجاذبية، لذا ان المجتمع متأثر بقانون الجاذبية الكوني الذي يجعل منه منجذباً الى الارض هذا اولاً، وثانياً ان الجاذبية موجودة في المجتمع نفسه حيث الافراد ينجذبون اجتماعياً لبعضهم البعض، فمن الصعب نجد فرد يعيش بمعزل عن المجتمع، فكلما انجذبوا الافراد لبعضهم البعض كلما كانوا اكثر قوة وثبات وهذه ما يسمى بالعصبية عند ابن خلدون، أما في العصر الحديث يولد انجذاب المجتمع نتيجة التطور والتقدم وتقسيم العمل، الذي بدوره يولد البقاء، لذا نجد المجتمع مثله مثل الذرات والجزيئات عندما تجتمع، فالذرة وحدها تكون جاذبيتها مهملة، والفرد بدون مجتمع لم يكن فاعل اجتماعي حسب اصطلاح بورديو.

ففي نظرية (العقد الاجتماعي) يوصف (جان جاك روسو) الإرادة العامة وصفاً مماثلاً للجاذبية الكونية، فيقول (عندما يجري الشعب مداولاته وقد تزود بمعلومات مناسبة، إذا لم يكن ثمة اتصال بين المواطنين كل منهم والآخر، فإن المجموع الكبير للخلافات الصغيرة يعطي دائماً الإرادة العامة، ويكون القرار دائماً قراراً صالحاً)

وتصور الأمر في ذهن (روسو) يبدو على هذا النحو أن الرأي السياسي لكل تحكمه مصلحته الذاتية. بيد أن المصلحة الذاتية تتألف من قسمين أحدهما يخص الفرد، بينما الآخر يشترك فيه كل اعضاء

الجماعة. فإذا لم يكن للمواطنين أية فرصة، لكي يساوم كل منهم الآخر مساومات صارخة يتحقق بها تبادل النفع لأنتفت مصالحهم الفردية لتعارضها، ولنجم عن ذلك نتيجة تمثل المصلحة المشتركة لهم. هذه النتيجة هي الإرادة العامة. وربما يجعل بنا تمثل تصور (روسو) بالجاذبية الكونية. فكل جزء في الأرض يجذب كل جزء آخر في الكون نحو ذاته. فالهواء فوقنا يجذبنا إلى أعلى بينما الأرض تحتنا تجذبنا إلى اسفل. بيد أن كل هذه الانجذابات (الذاتية) يلغى كل منها الآخر بقدر ما تكون متعارضة، وما يتبقى من انجذاب ناتج نحو مركز الأرض. ويمكن بخيالنا أن نتصور فعل الأرض معتبرة كجماعة والتعبير عن هذا الفعل هو الإرادة العامة(1). لكن السؤال ماهي الجاذبية الاجتماعية؟ بمعنى ما هو المجتمع؟

هذا المفهوم هو من أكثر مفاهيم علم الاجتماع غموضاً وأكثرها عمومية، فقد يشير إلى أي شيء، ابتداءً من الجماعات البدائية وصولاً إلى الدولة القومية الصناعية الحديثة. وقد اعتاد علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية على التفكير في الشعوب والجماعات البدائية باعتبارها أنساقاً اجتماعية مقابل مفهوم المجتمع الذي أصبح يساوي الأمة. في حين نجد أن علماء الاجتماع اتفقوا على عدم وجود معاني مشتركة تتعلق بطبيعة الحقيقة التي تدعى المجتمع(2).

---

1 – برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج3، مصدر سبق ذكره، ص264–265.

2 – علي وتوت، الدولة والمجتمع في العراق المعاصر، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، 2004، ص25.

ويأتي عدم الاتفاق على تحديد مفهوم معين للمجتمع هو بسبب عدم معرفة كيفية انجذاب الافراد لبعضهم وتكوينهم المجتمع، لأن العاطفة والغريزة هما السبب لانجذاب الافراد ويأتي العقل بعد الانجذاب ينظم العملية الاجتماعية من خلال التحديث الاجتماعي على مر التاريخ، لذا ان العاطفة والغريزة هما شيئان ذاتيان فطريان يخصان ذات او نفس الفرد وان الذات والنفس لا أحد يعرف ماهيتها بالتحديد لأنهما ليس موضوعان خارجيان بل ذوات انسانية، وبالتالي لا احد يعرف ماهية المجتمع لأن المجتمع مرتبط بذوات الافراد، وهذه الذوات مختلفة في المكان والزمان. لأن الإنسان بخلاف الحيوان هو الذي يصنع ماهيته بنفسه بعد ما تم وجوده في الكون، وهذه الماهية متغيرة على طول خط التاريخ البشري ومتغيرة في المكان ايضاً، وبسبب هذه الميزة التي يمتلكها الإنسان جعل من العلوم الإنسانية تتعذر عن إيجاد مفهوم محدد عن المجتمع.

لذا ان الجاذبية الكونية والاجتماعية ما زالان غير متفق على مفهومهما. فعلماء الفيزياء ما زالوا يعانون من عدم تحديد مفهوم معين للجاذبية لأنها ما زالات وجودها يعتريها الغموض بالنسبة للفيزيائيين. ومن ثم ان الجاذبية الاجتماعية تتماثل مع الجاذبية الكونية من ناحية عدم فهم ماهية الجاذبية وماهية المجتمع. وسنوضح ذلك اكثر في موضوع الخيال الفيزيائي والاجتماعي.

ثانياً: الامواج الكهرومغناطيسية والامواج الاجتماعية:

تأتي هذه القوة بعد الجاذبية من ناحية الاكتشاف، وانها وظفت بمهمة القيام بربط الذرات والجزيئات وجعلها تتماسك مع بعضها البعض فقط. أي ان تأثيرها يظهر بين الجسيمات الحاملة للشحنات الكهربائية. وبواسطتها تنتظم الالكترونات في مداراتها حول النواة، وتتماسك وتتحد الذرات والجزيئات بعضها مع البعض الآخر والجسيمات تتأثر بهذه القوة هي البروتون والالكترون. اما النيترون فانه متعادل من ناحية الشحنة الكهربائية أي لا يحمل اية شحنة كهربائية.

ان القوة الكهرومغناطيسية تظهر بشكل قطب موجب وقطب سالب فالاقطاب المتشابهة تتنافر، والاقطاب المختلفة تتجاذب. وان الشحنات الموجودة في البروتونات والالكترونات تتوازن فيما بينها توازناً دقيقاً. فمقدار الشحنة الموجودة في البروتون الواحد تساوي تماما مقدار الشحنة الموجودة في الالكترون الواحد، ولكن بشحنة معاكسة بغض النظر عن الفرق بين كتلتيهما.

ان قوة الجذب بين الاقطاب المختلفة التي تبديها القوة الكهرومغناطيسية تقوم بمسك الالكترونات ذات الشحنة السالبة حول النواة المحملة بالشحنة الموجبة.

ان مجال تأثر القوة الكهرومغناطيسية يصل الى مسافات بعيدة. وبسبب قوة الكهرومغناطيسية تستطيع النواة الصغيرة للذرة من المحافظة على دوران الالكترونات في مداراتها التي تبلغ اقطارها مائة الف مرة قطر نواة الذرة(1).

من ناحية الفائدة الاجتماعية أن الامواج الكهرومغناطيسية هي القوة التي تنير مدننا، أشعة الليزر والراديو والتلفاز والالكترونات الحديثة والحاسبات والانترنت والكهرباء والمغناطيسية– كلها نتائج القوة الكهرومغناطيسية. وربما كانت اكثر القوة التي سخرها الإنسان فائدة.

ومن ناحية المماثلة الكونية. أن المجتمع يتكون من قطب ذكوري وقطب انثوي، ومن خلال انجذاب (تزاوج) هذين القطبين يحافظ المجتمع على بقائه، فالاقطاب الذكورية تتنافر في التزاوج وكذلك الانثوية وهذا ما يسمى بالشذوذ الجنسي، لذا عن طريق النطفة الذكورية والبويظة الانثوية ما يقابها في الكون البرتون والالكترون تتشكل نواة الانسانية (خلية الجنين) الذي من خلالها يستمر تكاثر البشرية. فالمجتمع الذي خالي من الذكور او الاناث مجتمع محكوم عليه بالفناء، وبالتالي عن طريق الموجة الذكورية والانثوية يتشكل النسيج الاجتماعي بالاستمرار والبقاء، لذلك ان المرأة نصف المجتمع والنصف الآخر هو الذكر.

---

1 – عبد الودود رشيد محمد، شهادة الكون، مصدر سبق ذكره، ص57–59.

والذكر والانثى من منظور السوسيولوجيا يسمى بـــ(النوع الاجتماعي "الجندر" **Gender**)، ان مفهوم النوع الاجتماعي يعد من المفاهيم الجديدة في ساحة العلوم الاجتماعية ولاسيما تلك التي تهتم وتركز على تنمية المرأة كعلم الاجتماع التنموي، والمرأة والتنمية. وبالرغم من شيوع استخدام هذا اللفظ ألا انه ما يزال غامضا ويستخدم كبديل لمصطلح الجنس اي انه يعبر عن طريقة أخرى للإشارة إلى الجنس البيولوجي (ذكر/ أنثى) ويستعمله البعض الأخر ليحل محل كلمة (المرأة) في مجال المشاريع والمشاكل التي تخصنها هي بالذات ألا أن كلا التأويلين غير صحيح لانهما يهملان عنصرين أساسيين هما الرجل والمجتمع. فإذا انطلقنا من تعريفه سنجد انه هناك عدم وضوح في ترجمة هذه التعريفات فأحيانا يكون المرادف لكلمة الجندر النوع الاجتماعي، الجنس الاجتماعي، الدور الاجتماعي، الجنس البيولوجي.

والجندر: **gender** كلمة إنجليزية تنحدر من اصل لاتيني وتعني في الإطار اللغوي **Genus** أي الجنس من حيث الذكورة والأنوثة. فهو يشير إلى الصورة النمطية الثقافية للرجولة والأنوثة. حيث أن الثقافات السائدة هي التي تحدث التغيير في فكرة (الأنثى) حول نفسها ودورها في المجتمع ثم مكانتها وبالتالي ما يناله المرء من ظلم وتدني في المكانة الاجتماعية.

ومفهوم النوع الاجتماعي "الجندر" يعني "اختلاف الأدوار من حقوق، واجبات والتزامات وعلاقات ومسؤوليات والصور ومكانة المرأة والرجل التي يتم تحديدها اجتماعيا وثقافيا عبر التطور التاريخي للمجتمع وكلها قابلة للتغيير وهو بذلك يختلف عن مفهوم الجنس الذي يحدد الصفات البيولوجية الثابتة التي لا تقبل التغيير"(1)، ولتوضيح الصورة سنعرض في الجدول ادناه بعض التوضيحات لتسهيل التمييز بين استخدام الجنس والنوع الاجتماعي.

الجـــــنس (ذكر/انثى) sex	النوع الاجتماعي (الجندر) gender
1- طبيعة يولد بها الانسان	ثقافة ، عادات ، تقاليد ، اقتصاد ، سياسة
2- بيولوجيا وبالتالي غير قابلة للتغيير	يتكون اجتماعيا وبالتالي قابل للتغيير
3- ذكر / انثى	امرأة / رجل
4- مميزات جنسية أولية / ثانوية	مميزات اجتماعية وثقافية / وضع المرأة
5- أعضاء / وظائف	ادوار / مكانة / علاقات
6- أفراد	مجتمع / محيط / مؤسسات

1- اليونيفيم، مفهوم النوع الاجتماعي، الوحدة الاولى، مكتب غرب اسيا، الاردن، 2001، ص6.

ويبدو من الجدول اعلاه ان مفهوم النوع الاجتماعي يتضمن تلك الصفات الاجتماعية والحضارية المرتبطة بالرجال والنساء في اطار محتوى اجتماعي زمني محدد.

على خلاف الجنس الذي يتم تحديده بناءا على الجوانب البيولوجية للانسان والمتضمنة للصفات الفسيولوجية التي تفرق ما بين الذكر والانثى من خلال الكروموسومات والصفات التشريحية، الانجابية والهرمونية.

وعليه فمفهوم النوع يختلف عن مفهوم الجنس. في ان الاخير يشير الى الاختلافات البيولوجية البحتة بين الذكر والانثى، في حين يشير مفهوم النوع الى التكوين الثقافي والاجتماعي والذي يجعل من الذكور رجالا والاناث نساءا.

لكل منهم ادوار ووظائف محددة. بمعنى ان الادوار التي يقوم بها كل من الجنسين هي ادوار تشكلها الظروف الاجتماعية وليس الاختلاف البيولوجي. فعلى سبيل المثال اذا كانت تربية الاطفال والاعباء المنزلية مرتبطة تقليديا بالمرأة فأن هذا ليس له علاقة بتكوينها البيولوجي كمرأة، اذ يمكن ان يقوم الرجل بهذه الادوار. وعليه يمكن ان نخلص الى القول ان ادوار النوع الاجتماعي تختلف عن ادوار الجنس البيولوجي، فالاولى من الممكن ان تكون متبادلة بين الجنسين، في حين ان الثانية تتسم بالثبات.

وهذا ما يطلق عليه بمفهوم "هوية النوع الاجتماعي" Gender Identity" التي تعني "شعور الانسان بنفسه كنوع خاص، وليس بالضرورة ان تتوافق هوية النوع مع خصائصه البيولوجية، أي ان هذه الهوية الجندرية ليست ثابتة بالولادة، بل تتحكم في تحولاتها العوامل النفسية والاجتماعية". وقد أكد عليه العديد من علماء الاجتماع والنفس عندما كان الاهتمام منصباً في السبعينات على توضيح وجود النوع بمعنى توضيح ان الفروقات والتقسيمات بين الرجال والنساء لا يمكن تفسيرها من خلال الفروق البيولوجية، وإنما من خلال الأفكار السائدة ثقافياً حول الرجولة والانوثة وأتضح لديهم وجود الفروق الهائلة بين الثقافات في الافكار المتعلقة (بالنوع) وحول ادوار الرجال والنساء وظهرت دراسات حول الطريقة التي يتحول فيها الاطفال الصغار بنين وبنات الى رجال ونساء بالغين عبر عمليات التنشئة الاجتماعية طوال مرحلة تربية الطفل، التعليم، ثقافة الشباب، والممارسات المهنية وإيديولوجية الاسرة.

وعند تناولنا تعريف منظمة الصحة العالمية لمفهوم النوع الاجتماعي نجد أنها تعرفه على أنه "المصطلح الذي يفيد استعماله في وصف الخصائص التي يحملها الرجل والمرأة كصفات مركبة اجتماعية لا علاقة له بالاختلافات العضوية" ويبدو بحسب هذا المفهوم عدد من المرتكزات الاساسية لمفهوم النوع الاجتماعي وهي:-

معرفة وتحليل اختلاف العلاقات بين النوعين.

تحديد أسباب وأشكال عدم التوازن في العلاقة بين النوعين ومحاولة ايجاد طرق لمعالجة الاختلال.

تعديل وتطوير العلاقة بين النوعين حتى تتحقق العدالة والمساواة بين النوعين ليس فقط بين الرجل والمرأة ولكن بين افراد المجتمع.

وهذه التعريفات لأدوار النوع الاجتماعي يوضح بجلية ان المجتمع هو السبب في وعي الفرد بذكورته او انوثته بعيدا عما يسمى بالاختلافات البيولوجية بين الجنسين وبناءا على ذلك فان حركة المجتمعات في تطور مستمر مما يؤدي الى تطور دور النوع وتغيره بحسب الوسط الاجتماعي من ذكر او انثى او العكس فالجنس والجندر مفهومان يتعين فهمهما فهماً تاماً للقيام باي عمل فعال لمصلحة المساواة بين الجنسين. وعليه نخلص الى القول ان ادوار النوع الاجتماعي تختلف عن ادوار الجنس البيولوجي فالاولى ممكن ان تكون متبادلة بين الجنسين في حين ان الثانية تتسم بالثبات وان الادوار التي يقوم بها الجنسان من ذكر او انثى تكون بحسب ما حدد لهما المجتمع مسبقا وغالبا ما ترتبط هذه الادوار بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية اكثر منها عوامل بايولوجية(1).

---

1 – نبراس عدنان المطيري، المرأة والتنمية المستدامة (في ضوء مقررات مؤتمر بكين عام 1995)،(دراسة تحليلية اجتماعية لواقع المرأة العراقية)، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، 2005، ص9-11.

وبالتالي ان بقاء المجتمع بايولوجيا وثقافيا محكوم بوجود الذكر والانثى،في حين بقاء الكون محكوم بوجود الامواج الكهرومغناطيسية. وتعتبر هذين الوجودين قانون طبيعي واجتماعي متماثلان مع بعضهما في الوظيفة رغم الاختلاف في التكوين.

***

ثالثاً: القوة النووية القوية والضعيفة والقوة الاجتماعية:

القوة النووية الضعيفة هي قوة التخافت الإشعاعي. وهي القوة التي تسخن مركز الأرض المشع. وهي القوة وراء البراكين والزلازل والانزياح القاري واستخدمت لفائدة المجتمع كأشعة الرنين وغيرها. وتربط القوة النووية القوية نواة الذرة بعضها ببعض. وتنشأ طاقة الشمس والنجوم المسؤولة عن إنارة الكون من القوة النووية. ومشكلة القوة النووية هي أنها ذات مجال قصير، وتعمل بشكل رئيس ضمن بعد النواة. ولأنها مرتبطة بشدة بخصائص النواة فمن الصعب جدا التحكم فيها. وفي الوقت الحاضر فإن الطريقة الوحيدة لدينا للتحكم في هذه القوة هي تفجير الجسيمات تحت الذرية أو تفجير القنابل الذرية. وتستخدم هذه القوة في الطاقات السلمية والحربية كالسلاح النووي والقنبلة الذرية(1).

ان مخاطر الاسلحة النووية باتت تهدد العالم منذ 6 آب 1945 عندما القيت قنبلة ذرية على هوريشيما، فقال إنيشتاين (انا لا اعرف ما هي الاسلحة التي سوف تكون في الحرب العالمية الثالثة، ولكن الحرب العالمية الرابعة ستكون بالعصي والحجارة)، كما كتب الفيلسوف برتراند رسل في كتابه (هل للإنسان مستقبل؟) يقول فيه

---

1 – ميتشيو كاكو، فيزياء المستحيل، مصدر سبق ذكره، ص24.

(أنني اكتب الآن في ساعة مظلمة "تموز 1961" ومن المستحيل معرفة ما اذا كان العنصر البشري سيعيش مدة كافية الى ان ينشر ما اكتب أو الى أن يقرأ فيما اذا نشر، على ان الامل لم يمت، وطالما كان الامل ممكناً، فأن اليأس من نصيب الجبناء فقط)(1).

لا حظوا في ذلك العام أن إنيشتاين ورسل متخوفان من فناء البشرية بسبب صنع السلاح النووي، علماً ان في وقتها ما زالت القنبلة الذرية في طور الطفولة فكيف واليوم نحن في مرحلة سباق التسلح مما ادى الى اكتشاف القنبلة الهيدروجينية والبايولوجية والاسلحة النووية الفتاكة الذي يمتلكها الشرق والغرب ليس فقط في الدول الكبرى بل حتى في الهند وباكستان واسرائيل والسعودية وايران على ما اعتقد، وهذا خطر يهدد العالم بالزوال.

يقول رسل في هذا الكتاب ايضاً (وقد حققت السنوات اللاحقة بشكل يثير الرعب التعابير التي وردت في التقرير حول خطر سباق التسلح. اذ جاء فيها "أذا لم يتوصل الى اتفاق دولي فعال فان السباق للحصول على الاسلحة النووية سيبدأ بجد في الصباح الذي يعقب اول استعراض يظهر فيه امتلاكنا للسلاح النووي. بعد ذلك قد تحتاج الدول الاخرى الى ثلاث أو اربع سنوات للتغلب على تخلفها

---

1 – برتراند رسل، هل للإنسان مستقبل، ترجمة: علي حيدر سلمان، شركة التايمس للطبع والنشر، بدون تاريخ، ص137.

عنا بسبب سبقنا لها ابتداءاً". ثم يستمر التقرير في اقتراح اساليب السيطرة الدولية وينتهي الى القول اذا كانت الولايات المتحدة اول من يطلق هذه الوسيلة الجديدة للدمار العشوائي على الجنس البشري، فانها ستفقد الاسناد الشعبي في جميع ارجاء العالم، وتثير عجلة سباق التسلح، وتلحق ضررا بالغاً باحتمالات التوصل الى اتفاق دولي للسيطرة في المستقبل على مثل هذه الاسلحة(1).

لكن رغم هذه التقارير المرعبة التي ظهرت في منتصف القرن المنصرم إلا ان سباق التسلح لم يتوقف بل ازداد الى درجة خطيرة جداً، فالدول الصاعنة والمالكة لهذه الاسلحة لم تمتلك تلك الاسلحة من اجل عرضها في المعارض الدولية بل من اجل ان تهدد هذه الدولة او تلك وتستخدم حين الضرورة. فنحن نعيش اليوم عالم المخاطرة وعدم اليقين كما يرى أولريخ بك. وقد تفاقمت المخاطرة بالثورات المتجددة في مجال التقانة. ومع الأقرار بنواحي التقدم والتحسن الهائلة التي تحققت في المجتمعات الحديثة، فأننا لا يمكننا أن نغفل عن الآثار المدمرة المحتملة لهذا التطور التقاني في المجالات النووية(2).

وتكراراً لما قاله رسل فأني اكتب هذه الكلمات وربما تسبقني الحرب العالمية الثالثة قبل ان تصل كلماتي للقارئ. هذه الحرب

---

1 – المصدر نفسه، ص34.

2 – أنتوني غدنز، علم الاجتماع، مصدر سبق ذكره، ص729.

اصبحت تهدد العالم وأصبحت وشيكة على اعلانها خصوصاً ونحن نعيش صراع سياسي عالمي واقليمي حول السيطرة على الشرق الاوسط والامور تتجه الى التعقيد بين كتلة الشرق وكتلة الغرب والدول المتحالفة معهما، والعالم متخوف من بدأ هذه الحرب، فأنها حرب نووية مدمرة ربما تفقد ثلثي سكان العالم.

هذا من ناحية تصنيع القوة النووية وآثارها على العالم، اما من ناحية مماثلة القوة فهناك قوى اجتماعية تماثل القوى النووية.

تعّد القوة المفهوم الأساسي في العلوم الاجتماعية، شأنها في ذلك شأن القوة في العلوم الفيزيائية والتي لا يمكن ملاحظتها إلا عند استخدامها. ولكن كما يقول ستيفان لوكاس في مؤلفه "القوة رؤية راديكالية" أن القوة مفهوم مختلف عليه في الأساس، فهو مفهوم يختلف علماء الاجتماع دائماً في تعريفه وفي طرق استخدامه. ومرجع هذا الخلاف أن تعريف مفهوم القوة يتوقف على الرؤية النظرية للباحث، وعلى التوجه القيمي الذي يتبناه.

تتنوع أشكال القوة وتتباين وفقاً للظروف التي تسود كل مرحلة من مراحل التاريخ، والأحوال التي تمر بها المجتمعات البشرية المختلفة. وثمة أشكال كثيرة لتصنيف أشكال القوة وبناءاتها، ولكن الأكثر شهرة منها هي القوة الاقتصادية، والقوة العسكرية، والقوة السياسية باعتبار أن هذه القوى الثلاث هي القوى الاساسية السائدة في

المجتمع. والجذير بالذكر هنا أن تحديد فواصل قاطعة بين أشكال القوة وانواعها أمر صعب المنال، إذ إنها متداخلة قد تتولد عن بعضها البعض في كثير من الأحيان(1).

فضلاً عن أن الثورات تعّد قوة اجتماعية كبيرة تحدث انقلابات في بنية المجتمع، فعندما تحدث ثورة كبرى تؤدي الى انقلاب جذري في بنية المجتمع وبسبب ذلك نجد ان كثير من المفكرين ومنهم اوكست كومت لا يحبذون الثورة بل الاصلاح لأن الثورة تقلب الموازين الاجتماعية، في حين نجد مفكرين آخرين يحبذون الثورة ويعّدوها مرحلة تقدمية عن المرحلة السابقة وتأتي عن طريق الضغوطات الاجتماعية، ومن هولاء المفكرين كارل ماركس حيث يعّد ثورة البرولتيارية ثورة حتمية تحدث نتيجة ضغوطات الرأسمالية، وثورة البرولتيارية هي مرحلة تطورية عن طور الرأسمالية.

هذه الثورات التي حدثت في العالم مثل الثورات الفرنسية والروسية والعربية يتبناها قائد كاريزما يؤسس الافكار الثورية ويعبأ وعي الجماهير بافكار تحفزهم للقيام في حركة جماهيرية واحتجاجية واسعة مما يصبح النظام القائم غير قادر على قمحها فيؤدي الى زواله ويحل محله نظام جديد، وهذه القوة الجماهيرية تحتاج إلى قائد أو بطل،

---

1 – محمد ياسر الخواجة، المعجم المعاصر في علم الاجتماع، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، 2016، ص600–602.

لذلك نجد "هيجل" يرى أن القائد "البطل" هو الذي يدرك بوعيه حركة التاريخ في زمنه ومجتمعه فيكون فعله تجسيداً لإرادة الروح العام، وحينئذ تستدعيه اللحظات الحاسمة التي تمثل الفترات الانتقالية في تاريخ الجنس البشري، ويتوفر لديه إدراك حدس غامض بما سيكون عليه النظام العالمي أو نظام أمته، فيترجم هو ذلك بفعله السياسي(1). أما فيبر يقسم القوة او السلطة في المجتمع الى ثلاثة اقسام: قوة التقاليد، وقوة العقلانية القانوية، وقوة القائد المهلم (الكاريزما)، وعنى فيبر بالكاريزما القوة التي تدعمها القدرات أو الامكانات أو المواهب الفردية المتوافرة لدى شخص دون غيره، يرتبط هذا المصدر بشخصية القائد أو الزعيم وتأتي من أعجاب المواطنين بصفاته الحميدة وما يجسده من مثل عليا أو لأنه يرعى مصالحهم ويوفر لهم الأمن والاستقرار أو الرفعة، أو لتفانيه وتضحياته في سبيل جماعته ووطنه، وكما هو الحال في قوة الانبياء أو الرسل أو الزعماء والقادة الكبار(2).

في حين يقول كارليل في هذا الصدد، يقولون لي: ما هو التاريخ؟ أنا لا أعرف ماذا يعني التاريخ، ودفعوا المتوسطين والمنحطين من الناس لصناعة التاريخ، فالتاريخ إذن صناعة أبطال بواسطة الجماهير الذين لم

---

1 – عادل رؤوف، عراق بلا قيادة (قراءة في أزمة القيادة الإسلامية الشيعية في العراق الحديث)، المركز العراقي للإعلام والدراسات، سوريا، 2004، ص491.

2 – علي وتوت، منهج سوسيولوجيا السياسة، مصدر سبق ذكره، ص50.

تكن لهم سوى حياة حيوانية رتيبة لو لا وجود هولاء الأبطال، أنا لا أريد أن أقول أن هذا التصور صحيح، إذ أنا أعرف أن الفاشية لديها استدلال يشبه هذا الاستدلال، وأنا خصم الفاشية- غير أنني أريد القول: إن الحاجة إلى البطل والتغني به عبادة لازالت تمثل حاجة إنسانية وروحية وفكرية، وقد عكف المفكرون والكتاب المحدثون أيضاً على التفكير في هذه المسألة بدقة وجدية(1).

***

---

1 – عادل رؤوف، عراق بلا قيادة، المصدر السابق، ص490.

الاندماج النووي والاندماج الاجتماعي :

يّعد هذا الموضوع تابع للموضوع اعلاه، أن تفاعل الاندماج النووي. يعرف أيضا بالـ" تيرمونووي" هو، بالإضافة إلى الانشطار، أحد أهم أنواع التفاعلات النووية التطبيقية. الاندماج النووي عملية تتجمع فيها نواتان ذريتان لتكوين نواة واحدة أثقل. ويلعب اندماج الأنوية الخفيفة مثل البروتون وهو نواة ذرة الهايدروجين والديوترون نواة الهيدروجين الثقيل والتريتيون وهو نواة التريتيوم دوراً هائلاً في العالم وفي الكون، حيث ينطلق خلال هذا الاندماج كمية هائلة من الطاقة تظهر على شكل حرارة وإشعاع كما يحدث في الشمس، فتمدنا بالحرارة والنور والحياة. فبدون هذا التفاعل ما وُجدت الشمس وما وُجدت النجوم، ولا حياة من دون تلك الطاقة المسماة طاقة الاندماج النووي. وتنتج تلك الطاقة الهائلة عن فقد في وزن النواة الناتجة عن الاندماج النووي، وهذا الفقد في الكتلة يتحول إلى طاقة طبقاً لمعادلة أنيشتاين التي تربط العلاقة بين الكتلة والطاقة. هذا التفاعل هو الذي يغذي الشمس وباقي النجوم الأخرى في الكون، ويمدهم بالحرارة والضوء.

وفائدة الاندماج النووي تكمن في إطلاقه كميات طاقة أكبر بكثير مما يطلقه الانشطار. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المحيطات تحتوي بشكل

طبيعي على كميات كافية من الدويتروم اللازم للتفاعل فإذا فلح الانسان في ترويض تلك الطاقة لتغذية الكوكب بالطاقة لمدة آلاف السنين. وعلى الرغم من العدد الكبير من التجارب التي تم القيام بها في كل أنحاء العالم منذ خمسين سنة، فإنه لم يتم التوصل إلى بناء مفاعل يعمل بالاندماج، ولكن الأبحاث في تقدم مستمر لغرض التوصل إلى ذلك. وكل ما استطاع الانسان التوصل إليه في هذا المجال جاء في المجال العسكري بابتكار القنبلة الهيدروجينية (1).

***

ان المجتمع هو الآخر في اندماج، وهذا الاندماج يختلف باختلاف المجتمعات فهناك اندماج اخلاقي وسياسي وثقافي، بل أن اندماج المجتمع الغربي يختلف عن اندماج المجتمع الشرقي، هذا ويختلف الاندماج حتى في المجتمع الواحد، والاندماج له وظيفة اجتماعية قائمة على التضامن وتآزر الافراد مع بعضهم لتخفيف الاعباء والضغوطات الاجتماعية التي تقع على عاتقهم.

لذا ان إميل دور كهايم يعزوا سبب الانتحار الاناني (أو الانتحار المدفوع إليه الفرد من نفسه)، إلى ضعف الاندماج الاجتماعي، فهو يقول (يتغير الانتحار تغيراُ عكسياً مع درجة اندماج المجتمع الديني، يتغير الانتحار تغيراً عكسياً مع درجة اندماج المجتمع العائلي، يتغير

1 – اندماج نووي، وكيبيديا الموسوعة الحرة، موقع انترنت.

الانتحار تغيراً عكسياً مع درجة اندماج المجتمع السياسي)(1)، لذا كلما تكون المؤسسة الدينية والعائلية والسياسية مندمجة بقوة كلما يشعر الفرد بأنه منتمي الى قوة اجتماعية وبالتالي يكون الفرد اكثر انضباطاً لأنانيته، أما اذا اصبح تفكك اجتماعي في تلك المؤسسات ويبتعد الفرد عن المجتمع بسبب التحلل القيمي والضابط الاجتماعي فسوف يشعر الفرد بأنانيته وهذا ما يدفعه للانتحار.

ففي كتابه (الاندماج الجمهوري) يقسم هابرماس الاندماج إلى مستويين المستوى الاول يتمثل في ما يسميه بالاندماج الاجتماعي أو الاخلاقي، في حين أن المستوى الثاني يتمثل في الاندماج السياسي القائم على مبادئ كونية مجردة ومتعالية (بالمعنى الكانطي) أو على حد تعبير هابرماس "يجب التمييز بين الاندماج الاخلاقي للجماعات والثقافة التي تحدد هويتها الجماعية والاندماج السياسي الذي يشمل جميع المواطنين" وهذا التقسيم يعطي للدولة مشروعية تقديم الحلول لمختلف أشكال الظلم الاجتماعي السائدة في المجتمع(2).

---

1 – إميل دور كهايم، الانتحار، ترجمة: حسن عودة، الهيئة السورية العامة للكتاب، مكتبة الاسد، دمشق، 2010، ص253.

2 – كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مصدر سبق ذكره، ص121-122.

الفصل الخامس

تركيب الظواهر الاجتماعية



علم الاجتماع من منطلق ميكانيكا الكم :

رغم أن ريتشارد فاينمان عالم فيزياء كمومية يقول (أستطيع القول بكل أمانة بأنه لا يوجد أحد قد فهم الميكانيك الكمومي). وهذا بسبب تناقضاتها وصعوبة حل إلغازها، لكن رغم ذلك نعدّها من الأفكار والحقائق الممكنة، ولنسرق منها مفهوم التراكيب، في هذه الميكانيكا قط شرودنغر نصف حي ونصف ميت، اي هو في حالة تراكب. الالكترون لم يعبر من الفتحة ب او الفتحة أ لكنه عبر نحو الشاشة رغم ان المتاح امامه فقط هو العبور اما من (ب) او من (أ). الالكترون في حالة تراكب. هذه هي حالة الكون على المستوى ما دون الذري. فلم لا تكون الظواهر الاجتماعية هي ايضا في حالة تراكب؟ تتمثل الظواهر الاجتماعية في العائلة، الزواج، المجتمع، الدولة واللغة ...الخ. ندعي ان هذه الظواهر في حالة تراكب، فهي موجودة في الواقع الخارجي وغير موجودة فيه في آنً معاً.

عادة تنقسم النظريات في الظواهر الاجتماعية الى اثنتين: اولا، تلك الظواهر موجودة في الواقع، ثانيا، لا توجد تلك الظواهر.

المذهب الثالث هو الاصدق الا وهو ان الظواهر الاجتماعية موجودة وغير موجودة في آنٍ معاً. وهذه بعض الامثلة: في موسم الانتخابات الرئاسية او النيابية، سلطة الرئيس او سلطة مجلس النواب غير قائمة لكنها تأخذ مشروعيتها – وجودها من خلال الانتخاب، وبذلك هي قائمة. هنا الدولة غائبة جزئيا وحاضرة جزئيا. وفي الزمكان نفسه تضغط العائلة على افرادها لكي ينتخبوا هذا المرشح دون غيره على اساس تقاليد العائلة في الانتخاب. فمثلاً، اذا كانت العائلة الامريكية تنتخب عادة مرشحا ديمقراطيا، فسوف تضغط على ابنها او بنتها كي تنتخب المرشح الديمقراطي.

رغم عدم وجود العائلة الامريكية او رغم تفككها فهي تظهر في ذاك الزمكان كقوة محركة للمجتمع. بهذا المعنى العائلة في الغرب موجودة وغير موجودة في آنٍ معاً. لنتصور هذه العلاقة القائمة في المجتمع الغربي: شخصان يعيشان معاً ويتشاركان في عيشهما اقتصادياً اجتماعياً وجنسياً، وهما على الارجح ذكر وانثى. هما غير متزوجين فلا عقد زواج بينهما. رغم ذلك لديهما حقوق معينة، فاذا توفي الرجل سترثه صديقته. بذلك يوجد هنا نوع من الزواج رغم انه ليس زواج.

اما المجتمع التراكبي فاوضح مثال عليه هو المجتمع العربي. ينقسم المجتمع العربي الى مجتمعات تسمى دولا كالكويت ولبنان. هذه المجتمعات لا تتفاعل عمليا فيما بينها، وبذلك لا تشكل مجتمعا. لكنها تتفاعل على مستوى الاحداث الكبرى، فهي مثلا تتأثر بما يحدث من مآس في فلسطين. وبذلك تشكل مجتمعا. المجتمع العربي حاضر غائب. يصدق هذا القول ايضا على تراثنا. تراثنا يحركنا لكننا نجهل ما هو. ابن تيمية امير أصوليتنا لكننا نجهل فلسفته التحليلية، لا نعرف ما قال عن المعرفة واللغة. فالتراث تراكبي، قائم معدوم. النظرية التراكبية تسائلنا: هل نحن شرقيون ام غربيون؟ نحن اما شرقيون واما غربيون. لكننا لسنا شرقيين ولا غربيين، انظر الى لباسنا وكلامنا الغربي، ومن ثم انظر الى اعتقادنا بالسحر الشرقي والساحرات الشرقيات. نحن اوضح مثال على حالة التراكب(1).

بالاضافة الى ذلك، اللغة تراكبية لانها من الظواهر الاجتماعية التي لا توجد سوى في حال ادراكنا لها. لناخذ اللغة العربية مثالا لنا. لو انها موجودة، لم يحدث الخلاف حول كيف يجب ان تكون موجودة. لكن لقد قام هذا الخلاف. من هنا اللغة لست موجودة. من جهة اخرى، اللغة موجودة والا ما استطعنا ان نتخاطب. هذا يشير الى وجود اللغة وانعدامها في آن. ببساطة اللغة في حالة تراكب. لقد

---

1 – حسن عجمي، السوبر حداثة، مصدر سبق ذكره، ص135–137.

اختلف النحويون حول كيف يجب ان تكون اللغة العربية موجودة. اختلفوا مثلا في الاجابة على هذه الاسئلة: هل يجوز ام لا يجوز ان نقول "قائم زيد"؟ هل يجوز ام لا يجوز ان نقول "راكباً جاء زيد"؟ هل النصب واجب في القول "في الدار زيد قائما فيها"؟(1).

الوجود الاجتماعي هو أيضاً في حالة تراكب فهو موجود في وسط عدمين عدم الماضي الذي لم يعود لكن تبقى آثاره تشكل نمط العيش والسلوك والثقافة وهذا ما يسمى بالتراث والهوية والأصل والعرق فهو ماضي معدوم لكنه يشكّل وجودنا ويُلازم حاضرنا، وفي نفس الوقت ان المجتمع ينتظر المستقبل المعدوم ويخطط له ويتأمل احداثه لأن يشكّل وجوده وبقائه. فوجود المجتمع في الحاضر يتشكل من خلال الماضي المعدوم والمستقبل المعدوم. أذن ان المجتمع موجود وغير موجود في آنٍ واحد.

فرضية التراكب تستطيع بنجاح ان تفسر لماذا الظواهر الاجتماعية تكتسب قدرات سببية في اوقات ما وتفتقر اليها في اوقات اخرى. فمثلا، قد تكون المدرسة عامل تأثير سلبي على تلامذها مما يؤدي في ازمنة معينة الى العنف في بعض المدارس، لكنها لا تؤدي الى العنف في اوقات اخرى. السبب وراء هذا الاكتساب والافتقار

1- عبد الرحمن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص68. ص231. ص240.

للقدرة السببية التي تتحلى بهما كل الظواهر الاجتماعية هو ان الظواهر الاجتماعية في حالة تراكب. اي هي موجودة ولذا تملك قدراتها السببية، وهي معدومة وبذلك تفتقر اليها. قد حاول علماء الاجتماع وضع قوانين معينة تحكم المجتمعات وتاريخها. هذه المحاولة فشلت فاستبدلت بمحاولة تفسير الظواهر والاحداث الاجتماعية من خلال الميول. ففي ظروف معينة يميل المجتمع الى فعل كذا. مشكلة هذه الفرضية الاخيرة انها تطلب منا ان نشير الى الظروف المختلفة التي لا بد من وجودها لكي يتحقق الميل في الواقع ويفعل الفعل كذا من قبل المجتمع. لكن الظروف المطلوبة عديدة وتتنوع، وبذلك قد لا نصل الى تحديدها.

الخلاصة:

لا توجد قوانين وميول تحكم المجتمعات (سنعدل هذه الفرضية لاحقاً). هذا لأن الظواهر الاجتماعية تسبح في عالم من الفوضى. اذ لم يكن عالمنا الاجتماعي عالما فوضويا لأكتشف العلماء القوانين او اشباه القوانين التي تحكم مجتمعاتنا كما اكتشفوا قوانين الطبيعة. لكن ليس من الخطأ ان نصوغ للفوضى نظاما شرط ان يكون منسجما مع الفوضى ويعبر عنها. وخير تعبير عنها هو ميكانيكا الكم الممثلة في فرضية التراكب. من هنا لا بد من دراسة الظواهر الاجتماعية من خلال منهجية ميكانيكا الكم ومفاهيمها، فنقول ان الظواهر الاجتماعية في حالة تراكب. وبما انها كذلك، تظهر الفوضى ونراها.

احدى فضائل هذه الفرضية تقع في كونها لا تفصل بين العالم ما دون الذري والعالم ما فوق الذري اي المرئي، فالاخير معتمد في وجوده على الاول.

ميكانيكا الكم او مبدأ اللامحدد يحكم العالمين(1).

***

قوانين المجتمع والفرد:

يعتبر بعض الفلاسفة ان المجتمع والتاريخ محكومان من قبل قوانين معينة، اما بعضهم الاخر فيرفض هذه الفكرة. لكن حدوسنا تتناقض، لدينا حدس بان المجتمع وظواهره محكومة بقوانين معينة، ولدينا حدس نقيض بان ظواهر المجتمع والتاريخ تفتقر الى قوانين. اذا اعتبرنا ان الظواهر الاجتماعية والتاريخية غير محكومة من قبل قوانين معينة سنواجه بعض المشاكل منها:

انه لا يعقل ان يحكم العالم باسره بقوانين فيزيائية وكيميائية بينما ظواهر المجتمع المعتمدة في وجودها على تلك القوانين تفتقر الى قوانين خاصة بها.

عدم قدرتنا على التنبؤ بحدوث ظواهر اجتماعية معينة لا يختلف عن عدم قدرتنا على التنبؤ بمكان الجسيم وسرعته في عالم ما دون

1 – حسن عجمي، السوبر حداثة، مصدر سبق ذكره، ص137–128.

الذري. وبذلك اذا كان العالم الاخير محكوما بقوانين، فلا بد من وجود قوانين تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية. من جهة اخرى، بعد بحث مضنٍ قام به الفلاسفة والعلماء لم نتوصل الى صياغة القوانين الاجتماعية والتاريخية مما يدعم فكرة انها غير قائمة. فالظواهر الاجتماعية تتنوع، وما يصدق في مجتمع ما قد لا يصدق في آخر. مثلا، الدين قد يكون المحرك الاساسي في المجتمعات الشرق اوسطية، لكنه عامل ضعيف في اوربا المعاصرة. على اساس هذه الطروحات يبدو من الافضل القبول بالموقف الوسطي(1).

***

فيزياء الاكوان المتطابقة ومفهوما الهوية والحرية:

يقول ماكس تغمارك Max Tegmark (برفسور في الفيزياء وعلم الفلك) بوجود اكوان متطابقة ولا متناهية في العدد. هذه العوالم متشابهة في ادق التفاصيل كأنها مرايا تنظر الى بعضها بعضا. يضيف تغمارك ان هذه النظرية علمية، لديها تنبؤات معينة ومن الممكن تقييمها. بالاضافة الى ذلك، كل من النظرية النسبية وميكانيكا الكم تؤدي الى قبول النظرية القائلة بوجود عوالم ممكنة ومتطابقة الى حد بعيد. اذا اقصينا علم الفيزياء الحديث تظل النتيجة واحدة: لا بد من

1 – المصدر نفسه، ص139–140.

وجود هذه العوالم. هذا لأنه، كما يقول تغمارك، علم الاحتمالات يدعم وجودها. بما ان الفضاء لا متناه او على الاقل حجم الفضاء ضخم جدا، وبما انه ممتلئ بالمادة على نحو متجانس، اذا لا بد من نشوء اكوان لا متناهية ومتطابقة. ونظامنا الشمسي والمجرات نفسها. وبذلك، يستنتج تغمارك، في كل عالم متطابق يوجد قرين لك يشبهك او يطابق معك ماديا – فسيولوجيا وسيكولوجيا – عقليا، وحياته متطابقة مع حياتك في كل صفة وتفصيل. لكنه من الممكن انك ستكمل قراءة هذا المقال بينما قرينك سوف يتوقف عن القراءة.

في حال كون هذه النظرية العلمية صادقة ام لا، هي على الاقل ترينا انه من الممكن وجود عوالم متطابقة حيث لكل فرد قرين في عالم أخر. من هنا نسأل: بما ان قرينك لا يختلف عنك في تركيبه المادي والنفسي، فما الذي يجعلك انت انت في هذا العالم بدلا من ان تكون انت قرينك في عالم اخر؟ اي كيف من الممكن ان نفهم مفهوم الهوية الشخصية؟ الجواب مضمر في اقوال تغمارك. بما انه من الممكن انك ستكمل قراءة هذا المقال بينما قرينك قد يتوقف عن قراءته، اذاً انت مختلف عن قرينك. بكلام اخر، تكمن الهوية الشخصية Personal Identity في حقيقة أنه من الممكن فيزيائيا ان تتصرف بشكل مختلف عما يتصرف قرينك في عالم اخر. هذا يعني ان الهوية الشخصية تكمن في الحرية. من هنا، تبدو الحرية ليست سوى انك قد تتصرف بشكل مختلف عما يتصرف قرينك في عالم آخر.

تتنوع نظريات الهوية الشخصية لكنها تنقسم الى مذهبين اساسيين: المذهب المادي والمذهب السكولوجي. بالنسبة الى المذهب المادي، تتكون الهوية الشخصية من تطابق البنية المادية او البيولوجية. مثال ذلك انك في الوقت الحاضر تشكل الشخص ذاته الذي كنت عليه في الوقت الماضي لان تركيبتك المادية في الوقت الحاضر لا تختلف عن تركيبتك المادية في الماضي، فانت لديك الخلايا والاعصاب ذاتها. مشكلة هذا المذهب في انه من الممكن ان تتبدل خلاياك واعصابك تدريجيا بخلايا واعصاب اخرى شبيهة بالاولى فتظل هويتك الشخصية ذاتها رغم ان بنيتك المادية قد تبدلت كليا. اما المذهب الثاني فهو المذهب السيكولوجي. بالنسبة الى هذا المذهب، تتكون الهوية الشخصية من جراء التواصل السيكولوجي. مثال ذلك: انك في الوقت الحاضر تملك هويتك الشخصية ذاتها التي وجدت في الماضي لأنك قادر على تذكر كل تفاصيل تاريخك في الماضي او لأنه يوجد تواصل وتوجد استمرارية بين حالاتك النفسية والعقلية في الماضي وحالاتك النفسية والعقلية في الحاضر.

هذا مذهب الفيلسوف جون لوك. اما مشكلة هذا المذهب فهي انه من الممكن ان تفقد ذاكرتك وتتبدل سيكولوجيتك(رغباتك وافكارك) كليا عما كانت عليه في الماضي، وبذلك رغم التبدل السيكولوجي ما تزال انت انت، اي لا تزال هويتك الشخصية ذاتها.

من جهة اخرى، تواجه النظريتان السابقتان مشكلة اساسية تستخلص من نظرية العوالم المتطابقة. بما انه توجد اكوان متطابقة

حيث في كل عالم منها يوجد قرين لي يتطابق معي ماديا وسيكولوجيا، وبما اني مختلف عن كل قرين لي في تلك العوالم، اذا من غير الممكن ان تكون الهوية الشخصية كامنة في التطابق المادي والسيكولوجي. هذا النقد الموجه ضد النظريتين السابقتين في الهوية الشخصية يرينا صدق تحليل الهوية الشخصية من خلال امكانية الاختلاف الفيزيائية. فانا اختلف عن كل قرين لي رغم تطابقنا المادي والسيكولوجي، اي انا املك هويتي الشخصية، لأنه من الممكن فيزيائيا ان نختلف في تصرفاتنا.

توجد مشكلة اساسية اخرى في ميدان فلسفة الهوية الشخصية. من الممكن ان يحيا فرد ما الى الابد كأن يحيا في الجنة. وبذلك من الممكن ان تتبدل كل بنيته الجسدية والنفسية باخرى. هنا، ما الذي يجعل هذا الفرد في الوقت الحاضر هو ذاته في الماضي السحيق؟ الجواب: يحافظ الفرد على هويته الشخصية عبر الزمن بحيث ان الشخص (أ) في الوقت الحاضر هو ذاته الشخص (ب) في الوقت الماضي (م) بعمل ما (ع) ان يكون الشخص (أ) في الوقت الماضي (م) لم يقم بالعمل (ع) نفسه. وهذا من غير الممكن لأنه من غير الممكن تغير مجرى الاحداث في الماضي.

لابد الآن ان ننظر الى مفهوم الحرية. المشكلة الاساسية هي: كيف من الممكن ان توجد الحرية لدى البشر بينما كل الموجودات محكومة بالقوانين الطبيعية والحتمية السببية؟ من الخطأ تحليل حريتنا على اساس اننا نستطيع القيام بافعال مختلفة عن التي نقوم بها. هذا لأنه لو

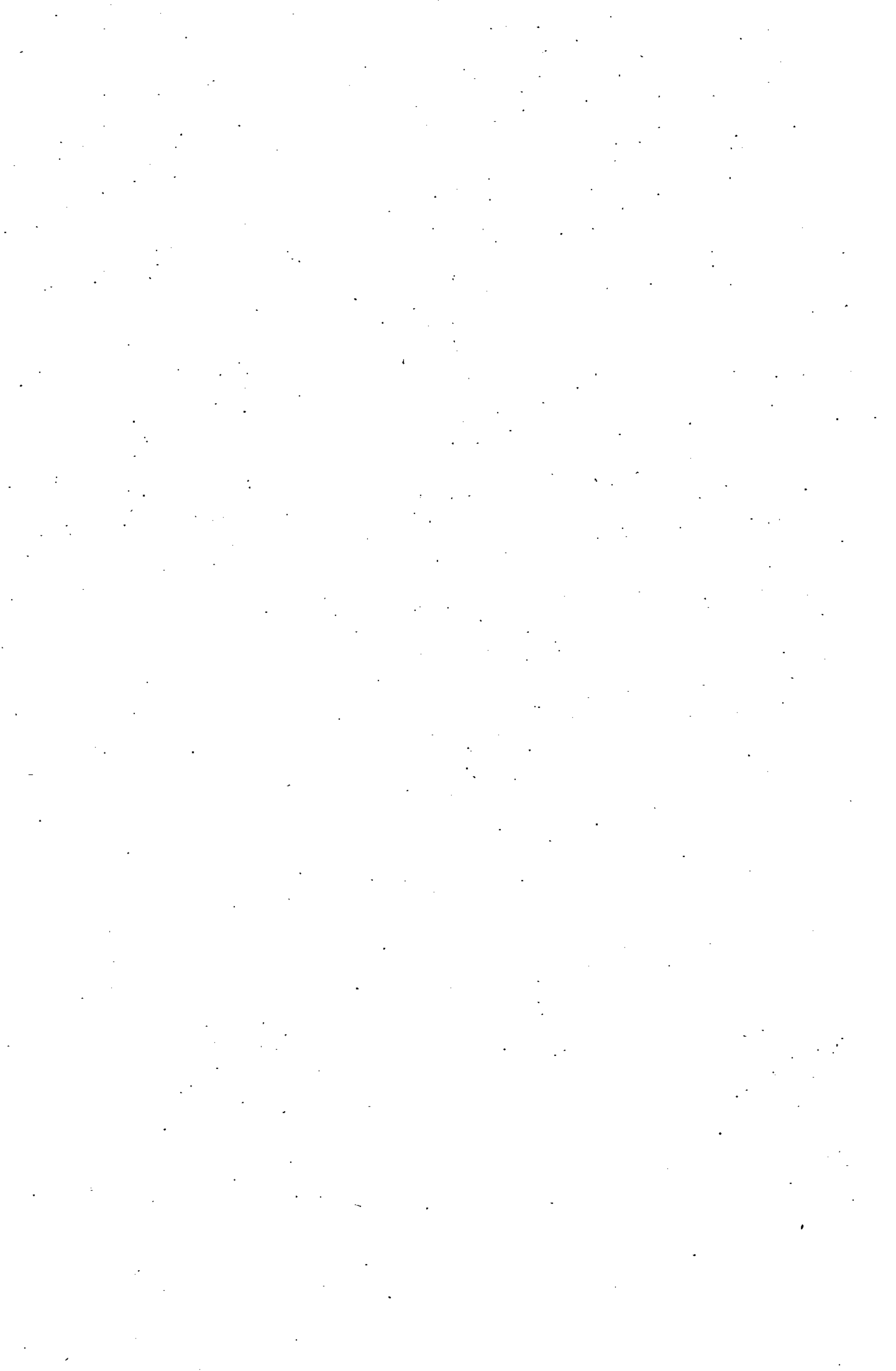
وجدت الحتمية السببية بحيث لكل شيء سبب يسببه، اذاً لابد من اننا مجبرون على القيام بافعالنا. من جهة اخرى، يتضح الحل من خلال مقارنة العوالم المتطابقة. رغم ان عالمي وعالم قريني متطابقان ومحكومان بالحتمية السببية والقوانين الطبيعية، من الممكن ان اتصرف بشكل مختلف عن تصرف قريني وبذلك املك حرية التصرف. تكمن علاقة الحرية مع امكانية الاختلاف بين تصرفي وتصرف قريني في التالي:

لو كان من غير الممكن ان يختلف تصرفي عن تصرف قريني، لكانت العلاقات السببية هي التي تجبرني على القيام بتصرفاتي مما يؤدي الى نفي وجود الحرية. لكن كيف من الممكن لتصرفي ان يختلف عن تصرف قريني؟ الجواب: اذا كان من غير الممكن ان يختلف تصرفي عن تصرف قريني، وبما ان عالمي وعالمه متطابقان بكل الصفات، اذا لن يكون عالمي مختلفا عن عالمه وبذلك لن توجد العوالم المتطابقة رغم اختلافها الطفيف. لكنها موجودة علميا كما يقول تغمارك. من هنا، من الممكن ان يختلف تصرفي عن تصرف قريني وهنا تكمن الهوية الشخصية والحرية. اما بالنسبة الى الاشياء المادية كالكراسي والطاولات فهي تفتقر الى الحرية لأنه من الضروري أنها تملك الصفات نفسها في العوالم المتطابقة كافة. فمن غير الممكن الكرسي أ في عالمنا ان يملك صفة لا يملكها قرين الكرسي أ في عالم متطابق مع عالمنا، هذا لان العالمين السابقين متطابقان(1).

1 – حسن عجمي، المصدر السابق، ص183–187.

الفصل السادس

الخيال الفيزيائي والسوسيولوجي



للخيال معنيان في الفيزياء وعلم الاجتماع، الاول: منها هو ان يتجاوز خيالك العلمي المعرفة المحددة لديك وعليك ان تتأمل اكثر مما يمكن اذا كنت فيزيائي او اجتماعي وعن طريق التفكير الخيالي والتأمل سوف تكتشف اشياء غامضة في الكون والمجتمع، والثاني: ان الخيال هو تأثير الاشياء المادية بالاشياء غير المادية بمعنى ان مادة الكون وافراد المجتمع متاثير ومحكمين بقوى لا مادية، وكلا المعنيان سنوضحهما.

***

فيما يخص المعنى الاول: يقول أينشتاين: "الخيال أهم من المعرفة، فالمعرفة محدودة بما نعلمه ونفهمه الآن، أمّا الخيال فهو يُحيط بالكون بأسره، ويُحيط بكل ما سنعلمه ونفهمه في أي وقت". وهذا الخيال الفذ الذي تميّز بهِ آينشتاين هو ما قاده لوضع نظريات حرّضت العقل البشري فيما بعد ليستعمل أقصى حدود المعرفة، وما زالت تقوم

بفعلها التحريضي حتى اللحظة، حيث كانت آخر نتائجه (الأمواج الثقالية).

هذا الخيال يجب ان يعتري كل باحث في اي مجال حتى يتوسع في ميدان علمه وعمله، ففي المجال السوسيولوجي يقول أنتوني غيدنز (إن تطوير التفكير بصورة سوسيولوجية، وبعبارة اخرى، اتخاذ نظرة واسعة واكثر شمولاً، يعني من جملة أمور اخرى شحذ المخيلة. إن دراسة علم الاجتماع ليست مجرد عملية روتينية لأكتساب المعرفة. إذا يفترض في عالم الاجتماع أن يكون قادراً على التحرر من الظروف الشخصية المباشرة ويضع الأمور في سياق أوسع. والعمل السوسيولوجي، على ما يرى المفكر الأمريكي س. رايت ملز في عبارة مشهورة، يعتمد على إعمال (المخيلة السوسيولوجية).

إن المخيلة الاجتماعية تتطلب منا في المقام الأول أن ننأى بأنفسنا عن المجريات الروتينية ليتسنى لنا أن نلقي عليها نظرة جديدة)(1).

أن الخيال منهج ظهر مع التقدم العلمي الحديث، حيث بدأ في الفن العالمي (روايات الخيال العلمي)، وانبرى ثلة من الفلاسفة بدارسته، فقد كتب عنه موريس ميرلوبونتي في كتابه (المرئي واللا مرئي).

---

1 – أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، مصدر سبق ذكره، ص48.

فالخيال عند جاستون باشلار هو الوسيط الذي يجعل الإنسان قادراً على أن يبدع نفسه كل جديد. لذلك أن الإنسان يحتاجه بعمق لمثل هذه الواسطة لكي يجد مدخلاً لوجوده الإنساني الخاص وللعالم الذي يكتنفه ويحيط به.

ومن ثم، يظهر الخيال بوصفه علامة ثقافية على جسد الطبيعة، إذ أن الخيال وإن كان يستمد مادته من الطبيعة، إلا أنه يتعامل معها على نحو يتجاوزها فيه. فالفنان بوجه عام– والشاعر بوجه خاص– يشعر بنوع من الألفة والحميمية إزاء الصور الطبيعية التي تتميز بثراء الأشكال التي تهبه إياها. وهذه العلاقة بين الفنان والطبيعة قد عرفت عند باشلار بأسم (التطعيم)، والتي عبر عنها في كتابه (الماء والأحلام) بقوله أن (التطعيم يبدو كأنه مفهوم ما هوي في فهم السيكولوجيا الإنسانية. فهو بمثابة السمة الإنسانية، والعلامة المميزة للخيال الإنساني. فالخيال الإنساني هو الوجه المتعالي للطبيعة. أو بالاحرى هو الطبيعة المتجانسة)(1).

وبالتالي فإن الإنسان حينما يتعالى بخيالة على الطبيعة، فلا يكون ذلك لشيء سوى أن يكشف عن باطنها، وأن يتيح لها كصورة شعرية أن تفصح له عن ذاتها.

---

1 – غادة الإمام، جاستون باشلار (جماليات الصورة)، مصدر سبق ذكره، ص246-247.

فالخيال هو الوجود الإنساني في أقصى حريته وفي تعاليه على العالم، بل وفي حيويته. ولا يتشابه باشلار مع بلانك فحسب، وإنما نشعر باقترابه– على نحو ما صرح باشلار عن ذلك بنفسه– أكثر من نوفاليس الذي يصرح قائلاً إن (الخيال هو الوجود نفسه، الوجود المنتج لصوره وأفكاره... فأنه ينتج الفكر) وهذا نفس ما عبر عنه باشلار في كتابه (شاعرية المكان) بقوله إن (الخيال هو ملكة إنتاج الصور، فالصورة هي نتاج مباشر للخيال) (1).

***

اما المعنى الثاني: أنّ القانون الكونيّ أياً كانت صيغته ومدلوله وفي أي ميدان كان عمله إنّما هو مفهوم ذهنيّ (فكريّ) منتزع من عدد من الوقائع الجزئيّة الخارجيّة، فقولنا مثلاً: إنّ كل جسم كبير يجذب جسما صغيرا.. هو ليس إلاّ صيغة ذهنيّة منتزعة أو مفهومة باعتبار ملاحظة عدد ضخم من الوقائع الخارجيّة التي حدثت فيها الجاذبيّة في عالم الكون، فهنا تنجذب تفّاحة وهناك تنجذب حصاة وهناك ينجذب كوكب .. وهكذا في قانون الجاذبيّة.

فمن الزّاوية الماديّة فإنّ القانون الكونيّ أياً كان ليس (مادة) لأنّه مسيطر على المادّة والمادّيات ويتحكّم فيها وليس محسوساً لوضوح أنّ ما هو محسوس هو مدار وانطباق القانون، وليس القانون على سعته،

1 – المصدر نفسه، ص248–249.

فإنّنا نرى التّفاحة تنجذب إلى الأرض لكنّنا لا نرى قانون الجاذبيّة(1).

كذلك في المجال او الحقل الكهرومغناطيسي الذي ادخله فارادي ومكسويل كتجربة. فنحن لا نستطيع أن نرى او نلمس مجالاً كهرومغناطيسياً، ولكننا نعرف المجال موجود بتحسس الفعل الذي يمتلكه على الشحنات الكهربائية، فالمجال هو حيز لا مرئي ولا ملموس له فعل كوني، فالتطورات الحديثة في البحوث الاساسية لم تكن لتوجد لو لم يصبح مفهوم المجال متداولاً بين الفيزيائيين. وعندما يصبح مفهوم المجال متداولاً بحيث يجد طريقه الى الناس كافة، فان التمييز بين الحقيقي والخيالي يصبح ضبابياً. وتستثمر الخيالات الفيزيائية (التخيلية) بصورة مألوفة، تبدو معها، وكأنها تحولت الى شيء حقيقي. وهذا ما حدث فعلا في حالة الطاقة، فمفهوم الطاقة دخلت الفيزياء كفكرة مجردة. وما جعلها يروق للعلماء هو قانون (حفظ الطاقة) التي لا تفنى ولا تستحدث. ومع ذلك ما هي الطاقة؟ هل تستطيع ان ترى الطاقة او تلمسها؟

وعليه فان الطاقة مفهوم خيالي مجرد اصبح جزءاً من مفرداتنا اليومية بحيث اننا نقرنه بالواقع الاكيد، فمثلاً جمله (لا امتلك طاقة

---

1 – مهتدي الابيض، قوى اللاوعي عند الإنسان، دار نيور للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، 2016، ص154-155.

كافية لحفر الحديقة) هذه الجملة لن تثير تعجب احد او عدم فهم احد. ولا احد يسألنا عن لون طاقتنا، ولا احد يطلب منا نسكب هذه الطاقة في إناء لغرض وزنها او قياسها. ومع ذلك فمن المقبول والمعروف ان لدينا طاقة مثلما لدينا جلد وعظام.

الطاقة هي احد المفاهيم الفيزيائية المجردة الاكثر بقاء. وهي ذات عون كبير في وصف عدد كبير من العمليات الفيزيائية، ويجسد قانون حفظ الطاقة تنوعاً هائلاً من الخبرات التي كان يتعين ان تناقش كل منها على انفراد لو لم تكن مندرجة فيه.. تمكننا الطاقة اذن من ربط عدة افكار سوية وبذلك يمكن عدها جميلة(1).

***

عودة الى مفهوم المجتمع، فالمجتمع هو الآخر غير مرئي ولا ملموس فوجوده غير مادي، وبالتالي ان المجتمع المتكون من كل العلاقات الاجتماعية والضوابط كالقوانين الدولية والحكومية والاحكام الدينية والاعراف والعادات والتقاليد الاجتماعية كل هذه الظواهر هي غير مرئية ولا ملموسة ووجودها يكمن في اذهان الافراد فهي اسقاطات ذهنية تترجم على شكل سلوك على ارض الواقع.

---

1 - باول ديفز، القوة العظمى، مصدر سبق ذكره، ص75-76.

لذلك نجد هيغل G Hegel يؤكد أن الدولة هي وحدة ميتافيزيقية. ويقصد هنا ان الدولة تقع وراء الافراد فهي غير مرئية ولا ملموسة لكن تنظيماتها يتحسسها الافراد وتضبط سلوكهم، فالدولة قبل اي شيء هي موجودة في اذهان افرادها، فالدول والحضارات كائنات ورقية، أي توجد فقط على الورق، هي مشاريع فكرية تعودنا ان نعتقد بوجودها، في حين المجتمع الذي يعتبره هيغل اساس الدولة بعد الاسرة هو الآخر يقع وراء الافراد، فالمجتمع شيء اعتباري ليس إلا، فأميل دور كهايم يقول ان المجتمع ننظر اليه من فوقنا فهو اكبر من عدد اجزاءه، ويقصد كهايم هنا ان الافراد لم يكوّنوا مجتمع اذا ما وجدت العلاقات والضوابط الاجتماعية وبالتالي يرتبط الافراد مع تلك الضوابط والعلاقات او الظواهر بالمعنى الاعم حتى يكوّنوا مجتمع.

وهذه الظواهر غير مرئية، لذلك يكون المجتمع اكبر من عدد افراده. فعندما يتطرق كهايم الى مفهوم (الحقائق الاجتماعية) يعرفها بانها البنيات الاجتماعية، المعايير والقيم الثقافية التي هي خارجة عن الافراد او الفاعل وقاهرة عليهم.

في حين يتسائل هيدجر في معرض نقده لذوبان الذات في الآخر. فيقول (إننا نفعل كذا، لأن الناس يفعلون، ونتصرف على هذا النحو، لأن الناس يتصرفون، ونؤدي هذا، لأن الناس يرون أن من الواجب

أن نؤدي هذا. فأين هم هؤلاء الناس؟ ومن هم الناس؟ وفي أي مكان يقبعون؟ وإلى أي وصف ينتمون؟)

انهم في الحقيقة كائن وهمي لا وجود له، ومن ثم فإن الناس ينتمون إلى هذا الآخر ويعززون قوته وذلك لأن مفهوم الناس عبارة عن مفترق للطرق مفتوح لكل قادم بيد أن هؤلاء الناس الذين لا وجود لهم هم في الوقت ذاته يملكون طرقاً عدة لكي يمارسون وجودهم الزائف(1).

في حين يوجد هناك مصطلح في علم الاجتماع يدعى (المخيال الاجتماعي Imaginaire Social). فكلمة (Imaginaire) من الكلمات التي لا نجد لها مقابلاً، مألوف الاستعمال، في اللغة العربية. والكلمة مشتقة من (Image) بمعنى الصورة: صورة الشيء في المرآة أو في النفس، إي في الخيال، ومن هنا ترجمه فلاسفة العرب القدماء للأسم الذي يطلق على الملكة الذهنية التي ترتسم فيها صور الأشياء الحسية والمتخيلة بلفظ المصورة تارة والمخيلة تارة اخرى، وأحياناً يستعملون الاسم اليوناني معرباً هكذا: فنطاسيا (Phantasia) وبالفرنسية والانكليزية (Imagination) الملكة الذهنية التي بها يستحضر الذهن صورة الأشياء.

---

1 - جمال محمد أحمد سليمان، مارتن هيدجر (الوجود والموجود)، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2009، ص122-123.

أما لفظ (Imaginaire) (خيالي) فهو في الأصل وصف لما لا يوجد إلا في المخيلة كالعنقاء والغول والشخصيات الاسطورية...ألخ، غير أن هذا الوصف يستعمل ايضاً بمعنى عام كأسم موصوف ويقصد به عالم الخيال، ما تنتجه المخيلة وميدان التخيل. ولهذا يترجم بعض الكتاب العرب المعاصرين هذا المصطلح بـ(المتخيل الاجتماعي) وهي ترجمة لا تفي بمضمون المفهوم كاملاً.

في اللغة العربية كلمات مثل (المخالة) مصدر خال بمعنى ظن، والمخيل، بتشديد الياء وفتحها، يقال فلان يمشي على المخيل أي على ما خيلت له، اي من غير يقين. والمخايل جمع مخيلة على وزن (كبيرة) ومعناها السحابة أو المخيلة بالفتح والضم وكسر الخاء، وهي السحابة إذا رأيتها حسبتها ماطرة. وتستعمل كلمة مخايل في معنى خاص فيقال مخايل السؤود ومخايل السوء اي ما يتخيله الإنسان بشأنها.

ويقول باحث آخر (إنه بقيام الجماعات البشرية بإنشاء معان ودلالات مخيالية اجتماعية. نتمكن من اعطاء معنى لكل ما هو موجود، لكل ما يمكن أن يقوم فيها أو يقوم خارجها. وأيضاً فبفضل هذه المعاني والدلالات المخيالية الاجتماعية تقوم الجماعات البشرية بتدشين العمل التاريخي وتنشيطه... إن كل مجتمع يقدم نفسه للرؤية، لرؤية الآخرين له، من خلال الصورة التي يكونها عن نفسه. فمن

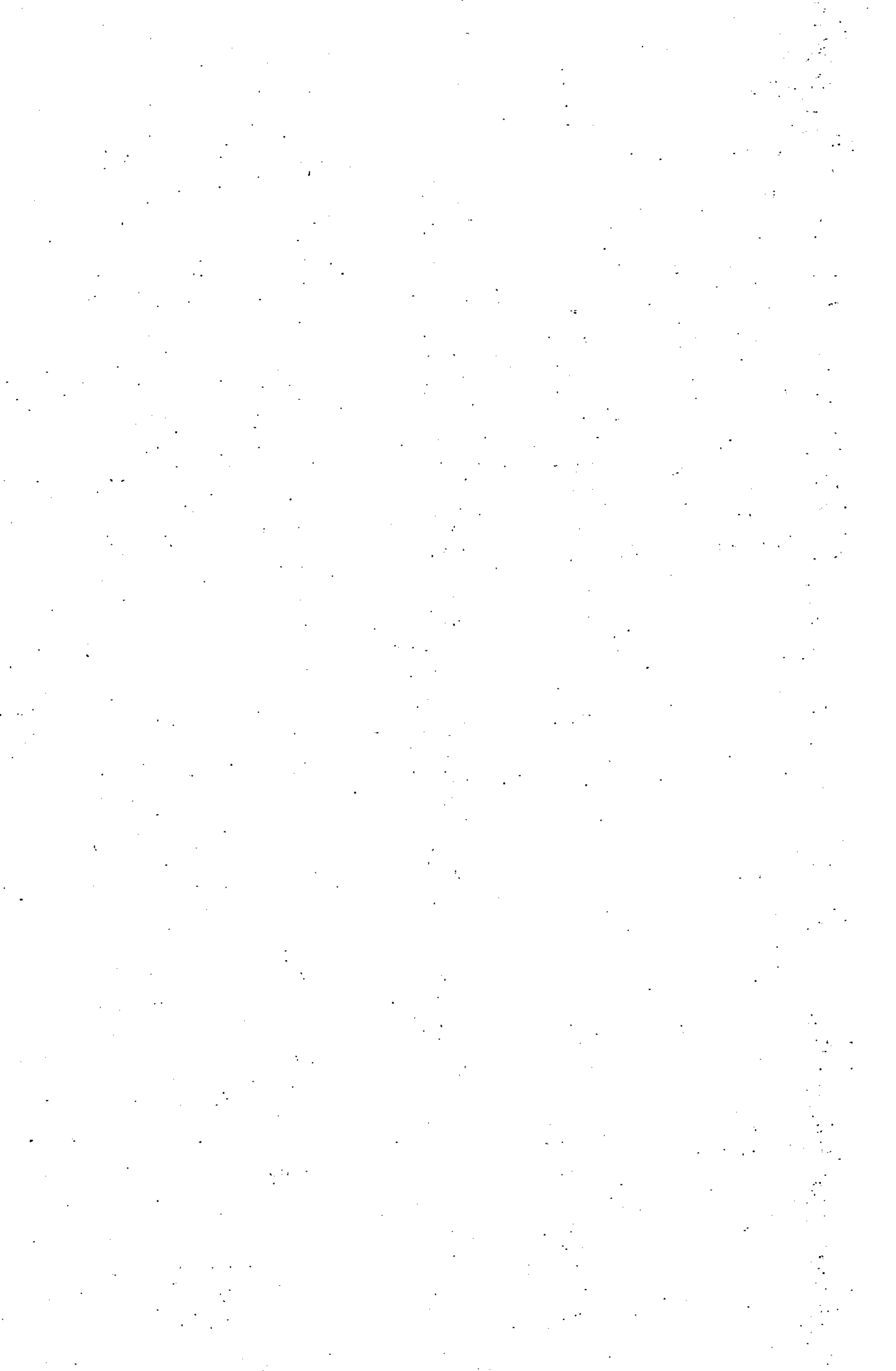
خلال هذا الموشور يرى الآخر ويصدر عليه حكماً، سواء كان هذا الآخر "وحشياً" أم "متحضراً"، "كافراً" أم "مؤمناً". وهذه التمثلات والتصورات المخيالية تمارس سلطتها ليس في ميدان التصور فحسب بل أيضاً في مجال الفعل الاجتماعي الذي تقوم به كل جماعة بشرية قائمة تعرف نفسها من خلال المقارنة مع الآخرين)(1).

---

1 – محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، مصدر سبق ذكره، ص14-15.

الفصل السابع

الروح- العقل- الكون



روح الكون والإنسان :

أن الكون المرئي الذي يتكون من الذرات والبروتونات والنيوترونات والكواكب والنجوم والمجرات، هذا النموذج القياسي الذي تحقق لدينا كما يقول العالم الفيزيائي ميتشيو كاكو لا يمثل سوى 4% من الكون، بينما 23% هي المادة المظلمة التي يعتقد انها هي الاهتزاز القادم من سلسلة اهتزازات كونية، فالمادة المظلمة غير مرئية، لذلك أذا قبضتها بيدي فأنت لن تستطيع رؤيتها، لكنها في الواقع تنثر من خلال أصابعي، وتتجه نحو الأرض تحت قدمي، وتستمر بالتحرك ذهاباً وأياباً، فالمادة المظلمة لها خاصية الجذب (الجاذبية) لكنها غير مرئية. ونحن لا نعرف ماهية أو حقيقة هذه المادة المظلمة. وكل ما نعتقد أن المادة المظلمة يمكن أن تكون في الواقع سوى اهتزاز أعلى من سلسلة اهتزازات، وهذه المادة التي نشاهد تأثيرها في تشكيل الكون تمثل 23% من مادة الكون.

أما الطاقة المظلمة تمثل النسبة المتبقية 73% من الكون، هي الطاقة من لا شيء انها طاقة فراغ بين جسمين في الفضاء الخارجي، الذي لا يوجد شيء بينهما إلا الطاقة المظلمة. وتلك الطاقة المظلمة هي التي تدفع المجرات بعضها عن بعض.

لذا فالطاقة المظلمة هي الوجود الذي وجد قبل الكون وسموها مظلمة لأنها غائبة عن مدركات العقل، وهذه الطاقة انتجت المادة المظلمة والاخيرة انتجت المادة المرئية، فالكون عبارة عن سلسلة موجودات عمودية، الواحد يعتمد وجوده على الآخر.

لذا فالكون قائم وجوده على الطاقة المظلمة الذي لا أحد يعرف حقيقتها او ما هيتها، هذه الطاقة هي بسيطة غير مركبة بخلاف المادة المظلمة والمادة المرئية وبما أنها بسيطة فهي لا نهائية لذلك ان النسيج الكوني لا نهائي، ومن خلال ذلك تعتبر هذه الطاقة هي روح الكون الذي يستمد منها طاقته ووجوده وبقائه فتمدّد الكون وتوسّعه قائم على هذه الطاقة. وفي صدد ماهية هذه الطاقة يقول آينشتاين اجد ما بين الأصلين الفيزيائيين: "المادة: اللبنة الأولى لبناء العالم"، و"الطاقة: اللبنة الأولى"، حقيقة– لا اعرف ماهي– هاربة من يد الفيزياء، باعتبارها وجوداً مجهولاً، تتجلى تارة بصورة المادة واخرى بصورة الطاقة، ولكنها تبقى مجهولة دائماً بالنسبة للفيزياء، وأحب أن أسميها الله.

وهذه الفكرة تأخذنا إلى الإنسان، فالإنسان يتكون من جسم فيزيقي وطاقة يتحرك على ضوئها هذا الجسم الفيزيقي ويكبر ويبقى وينمو، وهذا الجسم محدود لأنه يتكون من المادة المرئية في حين طاقة الإنسان غير محدودة مثلها مثل الطاقة المظلمة، فلو تحققنا من وظائف الجسم لنجدها محدوذة فالغذاء والراحة والغريزة وظائف محدودة، في حين وظائف الروح لا محدودة مثل العقل والفكر والوعي والعاطفة والحرية فأنها وظائف غير محدودة لا نهائية. كذلك نجد ان الجسم مركب من اجزاءه في حين الروح بسيطة غير مركبة والمركب محدود والبسيط غير محدود.

لذا نجد ان افكار البشر وتطورهم وتقدمهم لا يحده شيء ولا يتوقف إلى ما لا نهاية، وبالتالي يجب ان نعمق الجانب الروحي في الفكر البشري، لأن هذا الجانب هو أساس الوجود مثلما الطاقة المظلمة هي أساس وجود الكون.

ومن هذا المنطلق ان البشرية اليوم تواجه مشكلة وهي (العقلانية الإداتية) وهي سلب الروح والعقل من حقيقته الطبيعية وحريته اللانهائية وجعله خاضع للتقنية والادوات والآلات التي اخترعها، وهذا يؤدي الى تحول الإنسان من طبيعي إلى آلة وجعل المادة هي التي تتحكم في الإنسان وبالتالي يتقيد الإنسان بتقيد المادة، هذه المشكلة جعلت من النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت تأخذ على عاتقها نقد هذا الجانب ودراسة هذه المشكلة ونادت بتحرر العقل من الإداة.

انطلاقاً من هذا يرى هيدجر أن التقنية ليست أداة في متناول الإنسان المعاصر، بل أصبحت التقنية نفسها تستحوذ وتسيطر عليه، ولم يعد الإنسان قادراً من الانفلات من حتميتها وضروراتها، بل أكثر من ذلك، سببت له التيه وعدم الاستقرار وأخذت تظهر له وكأنها شيئاً متسقلاً عنه، واعتبرته مجرد (دمية) بين مخالب الآلات والأجهزة التي تستبعده، بل إن التقنية قد حولت الإنسان إلى مجرد (موظف للتقنية)، وهو ما يمثل تهديداً يثقل كاهل الإنسان نفسه، مما يدعونا إلى ضرورة التفكير في الطابع التقني لعالمنا المعاصر الذي أصبح عالما تقنياً، غير أن التهديد الحقيقي أصبح لا يتأتى بالدرجة الاولى من الآلات والاجهزة والأدوات التقنية، وخاصة تلك التي يمكن بالفعل أن تكون قاتلة وإنما في ذلك الاسلوب الحسابي والنفعي من التفكير الذي يقوم على فكرة الذات بوصفها قدرات وفاعليات لها ما يمكنها من التحكم والسيطرة على كل الأشياء والظواهر، حيث أصبحت تخضع موضوعها لمشروع تصميم قبلي محدد الأهداف، وهذه النظرة إلى الذات تستند إلى تقليد ميتافيزيقي ينظر إلى الإنسان باعتباره حيوانا عاقلاً يمكن ان ينتج الأدوات التي تمكنه من تحويل الطبيعة لأستتراف ما تدخره من طاقة (1). وهو بهذا كائن موجود بين أشياء يتميز عنها

---

1 – مارتن هيدغر، التقنية، الحقيقة، الوجود، ترجمة: محمد سبيلا وعبد الهادي مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1995، ص44.

بكونه يملك من القدرات ما يمكنه من السيطرة على الموجود والتحكم فيه وتسخيره لإرادته (1).

وبصورة عامة يمكننا القول إن التصور الذي مؤداه أن التقنية أو (العقلانية التقنية) في المجتمعات الغربية المعاصرة وغيرها بمثابة مشروع كوني للسيطرة يهدد الوجود الإنساني برمته، يدين فلاسفة مدرسة فرانكفورت بالفضل فيه إلى أطروحة هيدجر حول التقنية، غير أن الاختلاف الأساسي بينهما يكمن في منهجية مقاربة لهذه المسألة (2).

***

وعي المادة :

يقول روجر بنروز أن العالم العقلي مرتبط بالعالم الفيزيائي. وأفترض في هذا السياق أن الأسقف بيركيلي لا بد أنه كان يفكر أنه بطريقة ما ينبثق العالم الفيزيائي عن عالمنا العقلي، في حين أن وجهة النظر العلمية الأكثر اعتياداً تتمثل في أن العقلية إلى حداً ما هي إحدى خصائص نوع معين من التركيب الفيزيائي.

وقد أدخل بوبر عالماً ثالثاً يسمى عالم الثقافة، وهو يرى ان هذا العالم نتاج العقلية، ومن ثم فقد كان لديه سلسلة تدريجية من العوالم

1 – كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مصدر سبق ذكره، ص56.

2 – المصدر نفسه، ص62.

وفي هذه الصورة، يرتبط العالم العقلي بطريقة ما بالعالم الفيزيائي (وقد يكون أيضاً نشأ منه) وإلى حداً ما، نشأت الثقافة من العقلية.

فروجر يعتقد أن العوالم متصلة بعضها ببعض بالاضافة الى ذلك. فإن "العالم الثالث" الذي سبقت الإشارة أليه، ليس هو حقاً عالم الثقافة، لكنه عالم المطلقات الافلاطونية، خاصة الحقيقة الرياضية المطلقة.

ويبدو لروجر هناك مشكلة في العلاقة بين جميع هذه العوالم المتباينة تتعلق بالفكرة التي تقول إن العقلية تنشأ من الفيزياء، وهذا أمر يعرب الفلاسفة عن قلقهم بشأنه لأسباب منطقية للغاية. إن ما نتحدث عنه في الفيزياء هو المادة والكينونات الفيزيائية والأجسام الضخمة والجسيمات والمكان والزمان والطاقة... إلخ. ولكن، كيف يمكن أن ترتبط مشاعرنا وإدراكنا للألوان أو للسعادة بالفيزياء؟ في الواقع ينظر روجر إلى هذا الأمر باعتباره لغزاً، كما أننا نستطيع أيضاً أن نعتبر الأسهم التي ترتبط بين العوالم المختلفة ألغازاً(1).

يبدو أن روجر من اتباع المعرفة الميتافيزيقة الافلاطونية (نظرية المثل) لكنه يترجمها عن طريق الفيزياء حيث يربط الوعي بالفيزياء، حيث يقول في كتابه (فيزياء العقل البشري والعالم من منظورين)

---

1 – روجر بنروز، ستيفن هوكنيغ وآخرون، فيزياء العقل البشري والعالم من منظورين، ترجمة: عنان علي الشهاوي، كلمة وكلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2009، ص113–114.

(يبدو لي أن الوعي شيء كوني، لذلك فأن أية عملية فيزيائية مسئولة عن الوعي لا بد أن تكون ذات خاصية كونية بصفة أساسية).

وبهذا الطرح نفهم ان للكون حالة واعية ترتبط بالعقل وتكون هناك علاقة بين العقل والكون او العالم، هذه العلاقة هي العلاقة المسئولة عن انتاج الوعي في العقل البشري، وهنا تتسائل نانسي كارترايت ما الاسباب التي دفعت روجر للتفكير في أن الاجابات عن الاسئلة المطروحة حول العقل والوعي توجد في الفيزياء وليس في البيولوجيا.

ويرد روجر عليها قائلا: ينبغي ان أوضح اولاً انني بالتأكيد لا اقول أن البيولوجيا لا تعتبر مهمة في محاولاتنا لتناول هذه المسألة. في الواقع. إنني اعتقد أنه من المحتمل أن يعتمد التقدم الفعلي في المستقبل القريب على الجانب البيولوجي اكثر من اعتماده على الجانب الفيزيائي، ومع هذا فأن ذلك يرجع بصفة اساسية إلى أن ما نحتاجه من الفيزيائي، في رأيي، هو ثورة كبرى من يدري متى سيحدث ذلك.

وتأكيداً على الوعي الكوني فأن أنيشتاين اتبع نظريته الخاصة بنظريته في النسبية العامة في عام 1915 والتي تبحث في الجمل الكتلية (العطالية) المتحركة بحركات متغيرة السرعة والمتسارعة في حقل جاذبية أجسام أخرى، ونصت تلك النظرية على أن:

"الفضاء ما هو إلا حقل مكون من نسيج متصل زماني ومكاني بنفس اللحظة. ويتقعر هذا النسيج (يتحدب) حول الأجسام المادية مولداً ما يشبه حقل الجاذبية، فإذا دخل جسم آخر حيز هذا التقعر أنجذب إليه". ودعى أنيشتاين هذا النسيج بالمتصل الزمكاني. ووفق هذه النظرية يعتبر مسار حركة أي جسم كأنه نفق يفتحه الجسم أمامه ويتزلق فيه. فمثلاً حركة دوران القمر حول الأرض تتم بأن يفتح جسم القمر أمامه مساراً حولها ومن ثم يتزلق فيه. وسقوط الأجسام نحو الأرض يتم بأن يفتح الجسم تحته أنبوباً ثم يتزلق فيه نحوها.. وهكذا.

نستشف من ذلك، وكأن للمادة وعي للوجود المحيط بها وتخطط مسبقاً لما ستواجهه فيه من أحداث مستقبلية فترسم مسار حركتها المستقبلي في النسيج الزمكاني ثم تتزلق فيه هكذا تخيل أنيشتاين حركة الأجسام، وكأن لها إدراكاً مستقبلياً تخطط على أساسه كل حركاتها القادمة (1).

يقول عالم الفيزياء الشهير (ي- فيغنر) "لا يمكن وصف الظواهر الذرية بشكل صحيح ما لم يؤخذ بعين الاعتبار عامل الوعي" وطبعاً هذا يتوافق تماماً ويتطابق مع مبدأ الشك (الارتياب) الذي وضعه العالم الفيزيائي هايزنبيرغ في عام 1972.

---

1 – مخلص عبد الحليم الريس، الطاقات الخفية اللاإنسانية، مكتبة الأسد، دمشق، 2004، ص9-10.

أما حديثاً قد أكتشف وجود نوع من الإدراك الواعي بين الجسيمات ما دون الذرية، فمثلاً عند تفكك جسيم يدعي البيون ينطلق منه فوتونان متناظران باتجاهين متعاكسين ويدوران حول نفسيهما في اتجاهين متعاكسين ايضاً، والغريب في الموضوع هو أننا إذا أثرنا على أحدهما بمؤثر مغناطيس مثلاً وحرفناه عن مساره، فأن الآخر ينحرف فجأة وتلقائياً وبنفس اللحظة وباتجاه معاكس مناظر للأول وبدون أن يخضع هو لأي تأثير مغناطيسي ويتم هذا الأمر مهما كانت المسافة بينهما كبيرة، حتى ولو كانت المسافة هي الكون بأسره، وبالتالي نكشف وجود نوع من التماسك اللامادي واللازمني، وهذا يتخطي قوانين العلة والسببية والنتجية المألوفة في علوم الفيزياء. مما يوحى بوجود وعي لدى موجودات الكون كله. وتختلف درجة الإدراك من كينونة لأخرى حسب رقي تركيبها (1).

اما أصل هذه المادة نجدها في فيزياء الكم التي كشفت لنا أن المكان والزمان هما وهم للتصور، إذا اجسادنا لا يمكن ان تكون واقعية ما دامت تحتل المكان، فأن "أرنست رترفيلد" قام بتجربة في مانشستر أوضحت له الشكل الداخي للذرة، في حينها اندهشوا العلماء من اكتشافات رترفيلد أن داخل الذرة تقريباً عبارة عن فراغ عند أذن اصبح السؤال هو كيف لهذه الذرة الفارغة أن تشكل العالم

1 – المصدر نفسه، ص45-46.

الصلب من حولنا؟ ارى ان هذا الفراغ هو جزء من الطاقة المظلمة في الكون، بمعنى ان لهذه الذرة روح او طاقة هي هذه الفراغ الذي يجعل من الذرة باقية وتتحرك.

فأدراكنا الحقيقي لا يوجد في عقولنا أو اجسادنا لكن وهم اجسادنا الذاتية أضافة إلى عدم معرفة أصولنا الحقيقية شكلت لنا فكرة أننا نفكر باستقلالية عن الآخر. بهذا الفهم الخاطئ يبدو من المستحيل ان نفسر علمياً توارد الخواطر، اتصال عقل بآخر، الاستبصار، الوسائط الروحية. وبعض الظواهر الاخرى التي تعتمد على تناقل الافكار بدون وسائل ملموسة للتواصل، لكن عندما نستوعب ان هناك رابط روحي مشترك بين كل الناس في الكون وأننا جزء من ذكاء ألهي واحد. كل الظواهر قابلة للتفسير، هذا يعني أن الادراك يصنع واقعنا وهو امر صعب للتقبل لأغلب الناس.

فلماذا مثلا لم نستطع أن نخترق الحائط؟ إن علماء الفيزياء يؤكّدون أنّ تصادم قوى الطّاقة بين جسم الإنسان وجسم الحائط هو الذي يمنع الإنسان من اختراق الحائط وليس تصادم الحواجز، ولكن لو رفعت تلك القوى لأصبح الفراغ موجودا بينهما، وهنا يستطيع الإنسان عبور الحائط أو اختراقه، فيتجرّد من المادّة إلى الشّفافيّة والدّخول في نفق كونيّ يجعلك قادرا على أن تخترق الحائط أو تتمكّن من التنقّل عبر الكون خلال لحظة، لذلك فإنّ الخيال العلميّ يتنبأ

باختراع مركبات فضائيّة تخترق الزّمان وتدخل في الأنفاق الكونيّة لتنتقل عبر الكون خلال لحظة واحدة.

أنه من الاحتمالات العلمية، تواجد عالمين مع بعض، يحتلان نفس الجزء من الفضاء في نفس اللحظة من الزمن، كل عالم حقيقي كالاخر، بجباله انهاره وديانه اشجاره وساكنيه، وكل عالم يستطيع المرور بحرية داخل العالم الآخر، وكل منهما لا يدرك وجود الآخر، هذا ان استطعنا نضمن شيء واحد، أن القوى الذرية للمادة لكلا العالمين لن تلتقي مع بعض، ما الذي نقصد بذلك؟ أن القدماء كانوا مدركين تماما بعالم ما وراء الطبيعة، والقوى الخفية المحيطة بنا. وقد ادرجوا تلك المعرفة في تصاميمهم الفنية، كثير من الاثار والاعمال الفنية القديمة ترمز إلى مجاري للطاقة، وتصرفاتها. لذا فأن كل الطاقة تخضع إلى مبادئ وقوانين محددة. والقدماء كانوا مدركين أن كل شيء في الوجود هو عبارة عن طاقة. والمادة التي نرى هي مجرد وهم من الإدراك.

فرؤية برجسون للعقل الذي يفهمه من خلال فلسفته الثنائية: فالعالم عنده ينقسم إلى قسمين متباينين، العقل من جانب، ومن جانب آخر المادة، أو بالاحرى ذلك الشيء الجامد الذي ينظر اليه الفكر كمادة. والعالم بكافته هو الصدام والصراع بين حركتين متعارضتين: العقل الذي يصعد الى الاعلى والمادة التي تهبط إلى الاسفل. فالعقل

قوة عظمى، دافع حي ضخم يبدأ مع بداية العالم، ويلتقي بمقاومة المادة، ويكافح ليشق طريقاً عبرها، ويتعلم بالتدريج أن يستخدم المادة بالتنظيم. وينشطر هذا الدافع نتيجة العقبات التي يصادفها الى تيارات متباعدة، مثل الرياح في زاوية الطريق، يخضع للمادة خلال التكيفات التي تفرضها المادة عليه، بيد أنه يحتفظ دائماً بقدرته على النشاط الحر، مكافحاً دائماً ليجد منافذ جديدة، باحثا دائماً عن حرية أكبر للحركة وسط جدران المادة المواجهة له (1).

فرغم ان برجسون يتصور الحياة عبارة عن صراع بين العقل والمادة، لكنه يعطي للعقل بعد لا نهائي فالاعلى هو لا محدود بينما الاسفل محدود وهي المادة، لذا نرى برجسون يّعد العقل سابق على المادة ويخرق المادة لأنه يمتلك قوة يجعل من المادة خاضعة له رغم صعوبات المادة التي يواجهها، فالعقل هو الديمومة عند برجسون.

وبالتالي ما علاقة الوعي بالعالم؟ بالنسبة إلى عالم ويلر **Wheeler**، أن الوعي يشكل الكون، فمن دون وعي لا يوجد عالم. العالم يؤثر في الواقع كلما حاول دراسته. هكذا يفسر ويلر ميكانيكا الكم. باختصار، يقول إنه كلما حاول العالم تحديد مكان الجسيم أو سرعته فهو يؤثر فيهما مما يؤدي إلى أنه غير المحدد مكان الجسيم وسرعته في آن معاً. السؤال الاساسي هو: كيف يتمكن الوعي من التأثير في

---

1 – برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج3، مصدر سبق ذكره، ص380–381.

الواقع الفيزيائي أو كيف يتمكن الوعي من خلق الكون المادي؟ الجواب: يتكون العالم الفيزيائي من الشيء نفسه الذي يتكون منه الوعي، أي أن الوعي والكون لديهما الماهية نفسها والتعريف نفسه. فالوعي هو إمكانية الاستنتاج، والكون أيضاً هو إمكانية الأستنتاج. كيف هذا؟ إذا إعتبرنا أن الكون مكون من الحقائق الرياضية أو الكائنات الرياضية كالأعداد، وسلمنا مع الرياضيين الشكلانيين أن الحقائق الرياضية وكائناتها ليست سوى إمكانية أو قدرة استنتاجها، إذاً يصبح الكون إمكانية الاستنتاج. من هنا الكون والوعي لديهما الماهية ذاتها. لذا من الممكن أن يؤثر على بعضهما بعضاً، تحديداً من الممكن للوعي أن يخلق أو يشكل الكون (1).

***

وحدة العقل :

أما العقل البشري فقد توصل ليفي برول في دراسته بأن العقل البشري واحد لدى جميع الكائنات، لكن العقل بوصفه بنية ثابتة في المنطقة الوظيفية للدماغ يمكن ان يتأثر بعلاقته مع المجتمع وكل شيء (2).

---

1 – حسن عجمي، السوبر حداثة، مصدر سبق ذكره، ص190–191.

2– علاء جواد كاظم، بنية العقلية العراقية (دراسة تأويلية في الانثروبولوجيا المعرفية)، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، 2012، ص35.

فلا توجد عقول عديدة بل يوجد عقل واحد هو عقل الإنسانية جمعاء أي عقل كل البشر. فما ندعوه عقول البشر ليس سوى عقل واحد. إذا صدقت هذه الصورة، فعلى الأرجح كل ما نسميه عقلاً لفرد ما لا يشكل سوى شبيه نيورون **Neuron** بحيث يتصل بعلاقات مع عقول أخرى ليست سوى شبيهات النيورونات. كل شبيه نيورون يتصل بـــ أو ينفصل عن شبيه نيورون آخر، وكلما زادت الاتصالات مع شبيهات النيورونات كلما زاد ذكاء شبيه النيورون وتطوره. هذا ما نراه في الدماغ فنراه قائماً بين العقول. لذا المجتمع المتطور هو المجتمع المتعدد أو التعددي والمنفتح، فتعدده وانفتاحه على الآخرين يشكل مجرى للمعلومات بين شبيهات النيورونات أي ما ندعوه العقول مما يؤدي إلى الرقي والتطور العقلي. هذه الصورة تدعي أن عقول البشر تشكل مجتمعه عقلاً واحداً يتكون ويتصرف كما يتكون ويتصرف ما ندعوه الدماغ البشري. الدماغ البشري يتكون من نيورونات تتصل وتنفصل عن بعضها بعضاً، وكلما زاد وقوي الاتصال وتعدد زاد الذكاء والتطور. وبالنسبة إلى علم الدماغ، يتكون الدماغ أيضاً من مجار للمعلومات بحيث المعلومات تحمل من قبل تلك الاتصالات القائمة بين النيورونات. من هنا العقل الإنساني أو الجماعي يتكون من شبيهات النيورونات (ما ندعوه عادة عقولاً) ومن اتصالات وانفصالات بينها (تضمن تدفق المعلومات أو انقطاعها).

بالنسبة إلى هذا الاتجاه، لا يوجد عقل خاص. أي إذا وجد إنسان منعزل عن أي فرد آخر في جزيرة معزولة فلن يكون لديه عقل. بكلام آخر، من المستحيل وجود عقل واعي أو مفكر لوحدة منعزل عن العقول الأخرى. يشبه هذا الموقف موقف فتجنشتين القائل بعدم وجود أو عدم إمكانية وجود لغة خاصة. بالنسبة إلى فتجنشتين، من غير الممكن وجود لغة خاصة بفرد دون الآخرين بما أن معاني الكلمات والجمل يحددها استعمالنا لها أو استعمال المجتمع لتلك الكلمات والجمل(1).

لذلك هناك اتصال ادراكي لا شعوري بين الفرد والمجتمع والكون، لذلك يقول ماكس بلانك كان "كيبلر" وهما علماء فيزياء، كان يؤمن بأن العالم صنيعة إرادة واعية لها عقل وشعور حاكمة على جميع الوجود، وعالم الفيزياء عالم حي له شعور وله إرادة.

هذا الاتصال الادراكي يعبر عنه باشلار بـــ(الذاكرة الكونية) التي تعد بمثابة ذاكرة انتمائنا إلى العالم نفسه، التي تختزن وتحتفظ لنا ديناميات دخولنا في العالم وارتباطنا به وانفتاحنا عليه في حلم يقظة ومن خلاله (2).

---

1 – حسن عجمي، المصدر السابق، ص147–147.

2 – غادة الإمام، جاستون باشلار (جماليات الصورة)، مصدر سبق ذكره، ص285.

وبالتالي حسب ما استنتجته أن الكون وبما فيه يعمل وفق الذاكرة الرقمية (كتاب مرقوم)، ربما تكون هذه الذاكرة على شكل شرائح رقميه مثل عمل الديجيتال أو التقنية الرقمية في عالمنا المعاصر، والله العالم. وفي كل إنسان توجد فيه ذاكرة إزلية مستمدة من تلك الذاكرة الرقمية، وبالتالي هذه الذاكرة الرقمية تسجل كل ما يجري في الكون بأتقان حتى انها تسجل السلوك الإنساني الفردي والجمعي على طول التاريخ البشري في الزمان والمكان (•).

• - كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿⁇﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿⁇﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿⁇﴾.... كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿⁇⁇﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿⁇⁇﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿⁇⁇﴾، القرآن الكريم، سورة المطففين.

الفصل الثامن

الله والكون



إن لفظ الجلالة "الله" محتوي على اربعة حروف "أ . ل . ل . ه" فلو جئنا الى هذه الاحرف وجمعناها لأعطتنا اسم "الله" وطبقناها على القرآن لوجدناها حاكية عن الرزق بقوله عز من قال "إن الله يرزق من يشاء" وعلى العلم بقوله سبحانه "والله بما تعلمون عليم" وعلى القدرة بقوله تعالى "والله على كل شيء قدير" وعلى الحياة والقيومية بقوله تعالى "الله لا اله الا هو الحي القيوم" وغيرها.

ولو جئنا الى لفظ الجلالة وحذفنا منه الالف لبقي ثلاثة احرف وهو "لله" وهو كاشف عن السلطنة والملكية العظمى قال تعالى "ولله مالك السموات والارض" وعلى العزة قال تعالى "ولله العزة" وعلى القوة قال تعالى "ان القوة لله جميعاً" وعلى الخالقية للسماوات والارض قال تعالى "الحمد لله خالق السموات والارض" واثبات الغيب له قال تعالى "انما الغيب لله" وغيرها.

ولو حذفنا الألف واللام الأولى لبقي من لفظ الجلالة حرفين هما اللام والهاء وهما يشكلان "له" وهو كاشف عن ملكه بما في السموات والارض قال تعالى "له ما في السموات والارض" وعلى اثبات الحاكمية له سبحانه "الا له الحكم" وعلى اثبات الخلق والامر قال تعالى "الا له الخلق والامر" وغيرها.

ولو حذفنا الالف واللامين لا يبقى في الاسم الا الهاء. والهاء كاشفه عن الذات وهي حقيقة الهوهوية المعبر عنها بـــ"هو" في قوله تعالى "قل هو الله احد" وهو الخالق الحقيقي في قوله تعالى "هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً" وهو الرحمن الرحيم والاله الواحد في قوله تعالى "والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم" وغيرها. وحرف الهاء في الشكل الهندسي يمثل الدائرة ( ) والدائرة تدل على نفي البداية والنهاية "لا محددة" وهي دليل على بساطتها وسرمديتها وقدمها الازلي وبقائها الابدي. فـــأبتداء لفظ الجلالة على الالف دليل على القدم الازلي وانتهاءه بالهاء دليل على بقائه الابدي.

فمفهوم الله ينقسم الى "الـــ" التعريف، ومفهوم "له"، مما يستدعي في عقولنا إمكانية أن مفهوم الله مشتق من "له"، فإذا زدنا على "له" "الـــ" التعريف نحصل على كلمة "الله". فالعملية الأولى في بناء الدين هي عملية الاشتقاق اللغوي. لنتصور أننا نفهم مفاهيم "لي"، "لك"، و"له". إذا حصلنا على اشتقاق الله من "له" يتختم علينا إعطاء هذا

المفهوم الجديد معنى، والأجدر الاعتماد على أن معنى "الله" هو الذي له الأشياء والكون، أي مالك كل شيء بما أننا أضفنا "الـ" التعريف لـ "له". وبذلك نحصل على مفهوم الله كما نعرفه، فبما أن الله مالك كل شيء، إذا لا بد أنه صانع كل شيء لكي يحق له أمتلاك كل شيء، وبما أنه صانع كل شيء إذاً هو عظيم...ألخ (1).

وجد الإنسان وهو مجبول للبحث عن المعنى. لكن الإيمان بالله التي توصلت لها البشرية حلت لهم لغز المعنى وأمنوا بأن الله الغاية النهائية، وبمجرد أن تلغي وجود الله من حياتك فسوف تدخل في متاهة المعنى والعبث والفوضوية في الوجود. وهذا المعنى يجعل من الإنسان أن يبحث عن الأسباب. وبالتالي يكشف أشياء كبيرة شيئاً فشيئاً ويستخدم تلك الأشياء لدعم المعنى من وجوده. فهل الله يقف عائق أمام البحث عن المعنى؟ أو هل المعنى يجعلنا ننكر وجود الله؟ هذه الاشكالية اليوم تولد صراع بين النفس الإنسانية وبين البشر أنفسهم، وأنا ارى أن غالبية البشر لا يعرفون معنى الله ووجوده. ولا يعرفون المعنى من الوجود.

وفي هذا الموضوع سأتناول فقرتين مهمتين، الأولى هل الكون جاء عن طريق الخلق أم عن طريق التوالد العفوي وما تأثير ذلك على المجتمع. والثانية نقد العلوم الدينية الإسلامية وتخلف مناهجها

1 – حسن عجمي، السوبر حداثة، مصدر سبق ذكره، ص201.

التعليمية أمام الحداثة والعلم التي توصل إليها العالم وتأثير ذلك على المجتمع الأسلامي والعربي.

***

أولاً: نشأة الكون :

1- التوالد العفوي :

هل يمكن اثبات وجود الله فيزيائياً؟ هذا السؤال ربما يعّده الدينيين واللادينيين سؤال خاطئ، وأنا هنا طرحته من أجل الرؤية التجديدية للمسائل العقدية في الدين وسأعلل ذلك لاحقاً.

أنِ علم الفيزياء ليس من شأنة إن يناقش مسألة الإيمان بالله، خالق الكون المادي، وهذه واحِدة من التّأكيدات التي أكثَرَ الحديث عنها في كتاب (التصميم العظيم، للفيزيائي ستيفن هوكنغ)، هو أنّنا لسنا بحاجةٍ إلى فكرة الإله لشرح ماهيّة آثار خلق الكون. ليس من الضّروري إشراك الإله في الموضوع برمّته لإشعال الفتيل لبداية الكون، بدلًا من ذلك، يمكن لقوانين العلم وحدها تفسير بداية الكون، ولماذا بدأ الكون. فهمُنا الحديث للوقت، يوحي بأنّهُ مجرّد بعدٍ آخر، مثل الفضاء. وبالتّالي، فإنّ الزمن ليس له بداية.

"لأنّ هناك قانون مثل الجاذبيّة، يُمكن للكون أن يخلُق نفسه من العدم"، "الخلق العفويّ هو السّبب، هناك دائمًا شيء بدلًا من لا شيء، لماذا الكون موجود، لماذا نحن موجودون."

ويعترف ستيفن هوكنغ في كتابة (موجز تاريخ الزمن) بأن نموذجه الرياضي حول كيفية نشأة الكون مجرد افتراض عقلي، حيث فيه يتحول احد ابعاد المكان الى زمان، بل ويعترف بأن الأمر يتضمن الحيلة الرياضية. وفي جميع الأحوال يعترف بأنه "لا معنى ان نسأل أيهما الحقيقي الزمان الحقيقي أو التخيلي، فالأمر ببساطة هو ايهما التوصيف الأكثر فائدة". فهذه هي براجماتية العلم وهرمنوطيقيته واصطلاحيته كما سبق إليها بوانكاريه.

والغرض من هذه النظرية هو تبيان نشأة الكون من لا شيء على الإطلاق. فليست هناك بداية محددة ولا زمن كي يقال من هنا بدأ تأثير العامل الخارجي كما يتمثل في الإله الخالق مثلاً.

فالحوادث الكمومية هي حوادث لا تعلل بأسباب خارجية، مثلها في ذلك مثل تحلل ذرات العناصر المشعة غير المستقرة حيث يحدث ذلك آلياً بلا سبب خارجي. وكذا حال الكون في نشأته فهو لا يمتد إلى ماض غير منتهي أو ازلي، ورغم أنه حادث إلا أنه لا يمتلك لحظة ولا مفردة محددة للنشوء كي يقال من هذه اللحظة بدأ النفخ في

النار، أو من هنا بدأ الكون. لذلك لا معنى للكلام عن أي شيء قبل الإنفجار العظيم، لا زمان ولا مكان ولا كائن ما كان، مثلما لا معنى للحديث عن نقطة محددة بدأ منها هذا الكون وفقاً للمنطق الكمومي.

وأذا أردنا مناقشة هوكينغ نقول، عندما يتعلق الامر باصل الحياة هناك احتمالين فقط. الخلق او التوالد العفوي. التوالد العفوي تم رفضه بعد نظرية الانفجار الكبير. في حين بقي هنالك بعض الرؤى المختلفة ومن هولاء الفيزيائي هوكينغ. لكن هذا يقودنا الى استنتاج واحد. وهو الخلق ما فوق الطبيعي لا يمكننا قبول ذلك حسب الاسس الفلسفية. ومنه نختار ان نؤمن بالمستحيل ان الحياة خلقت بالعفوية وبالحظ. يجب على العلم ان ينقد ضمن ماهو طبيعي حتى وان كان بدون معنى. فلسفيا لا يمكننا ان نتبع الادلة حيث ما اخذتنا اليه إلى ما وراء الطبيعة الى عالم غيبي الى عالم تجريدي. يجب علينا ان نبقى داخل المجال المادي والطبيعي، هذا كان في عام **1945** الفكرة هي ان العلم سيجيب في الاخير على كل التساؤلات. لكن اخر اللجوء اليه هو اللجوء الى تفاسير غيبية غير ملموسه. المثير للدهشة هو انه بعد **30** سنة.

في عام **1984** اصدر (جورج والد) مقولة اخرى من كتاب (الحياة والعقل في الكون) ولقد ما أن يقدم ندوة حول علم الاحياء الكمي هذا ما قاله (لقد توصلت الى صدمة قوية لمعارفي العلمية.

ان كلا السؤالين. يقصد منبع الحياة لدى الانسان والحياة لدى المواد غير الحية. يمكن اعتبارهما نسبا ضمن نفس المجال، هذا مع افتراض ان الادراك بدلا من كونه منبثق من تطور الحياة قد تواجد منذ الازل كمصدر وصانع كل الحقيقة الفيزيائية. مكون الحقائق الفيزيائية هوَ الادراك ان الادراك هو من ينتج مادة تنبثق منها الحياة ومن ثم تأتي الكائنات التي تدرك وتصنع العلوم، الفن، التكنلوجيا ومنهم يبدأ الكون في معرفة نفسه) ووالد شخص مادي مشكك في وجود الله. لكنه يدخل مفهوم العقل (الادراك) كيف للمادة ان تصبح عقلاً؟ الادراك هو من ينتج المادة. .

المادة لم تنتج ابداً ادراكاً او عقلاً او معلومات. نعرف ان هذه الخلية المسماة بالحمض النووي هي شفرة من المعلومات، نظرية المعلومات تقول ان هذا النوع من الشفرات لا يمكن ان يكون الا نتاج لعقل، لذكاء. ليس هناك احتمالات اخرى. وهذا ما قاله (جورج والد) نفسه بالرغم ان هذا الامر يخالف اعتقاداته العلميه انه في كل مجالات دراسته وجد ان الادراك هو من ينتج المعلومات والمادة ..ألخ.

وعودة الى ستيفن هوكينغ فهو يقصد أن الأله لا نحتاجه أن ندرسه فيزيائياً فهو خارج علم الفيزياء الكونية وهذه وجهة نظر علمية مقبولة، بمعنى أن الفيزياء الكونية أختصاصها تدرس الكون فحسب،

لأن الله مؤثر خارجي ترجيدي لا يمكن للعلوم الفيزيائي أن تصل إلى حقيقته لذلك يتم رفض دراسة المؤثر الخارجي في الفيزياء، ورغم أن هوكينغ لا ديني أو ملحد لكن تبقى آثار الافكار الدينية مترسخة في لا شعوره.

فالدكتور عدنان ابراهيم يرجع سبب إلحاد هوكينغ الى عامل سايكلوجي، فهو يقول (بسبب العوق الجسدي الذي يعانيه هوكينغ جعل منه يتحدى الوجود بعدمية الإلة، لأن لو كان هناك إله لأنقذه من عوقه)، وأضيف هنا فكرة أخرى هي أن الله عند المسيحية يختلف عن الله عند الإسلام وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف كتبهم المقدسة. فالكتاب المقدس بشقيه القديم والجديد يتصورون الله وفق سلوك البشر، فهو يحزن ويمشي ...ألخ، فضلاً عن الثالوث المقدس التي تؤمن به المسيحية، حيث يتصورون الله هو المسيح الإنسان، وبما أن هوكنيغ من هذه الأصول الدينية فهو حتماً أفكاره عن الله نابعة منها، لذا فهو توصل بأن إله اليهودية أو المسيحية المحدود لا يمكن خلق هذا الكون اللامحدود وهو صائب في رؤيته من هذه الناحية، أما من ناحية أخرى بأننا إذا ألغينا الله من خلق الكون وأعطينا الخالقية للعدم فبهذا نحن قيدنا الفكر وحبسناه في هذا الكون وجعلناه افقياً. بينما أذا اعطينا الخالقية لله حررنا الفكر والعقل وجعلناه عمودياً وبالتالي من الممكن أن نكتشف عوالم أخرى نستفاد منها لتحقيق التكامل البشري.

أما في القرآن الكريم نجد أن أسلوبه البلاغي يختلف عن أي كتاب آخر. فالله في القرآن له صفات وأفعال لا نهائية وحقائق غيبية لا محدودة، فأرى أن أكتشافات الفيزياء الحديثة وفيزياء الكم تتلائم مع الصفات الإلهية الموجودة في القرآن إلى حدا ما. وأرى أن هوكينغ لو كان مسلماً أو قارئ القرآن لربما غير نظرته عن حقيقة الله.

فالله خلق الكون وما عليه بالقوانين الطبيعية، بمعنى خلق الاشياء بأتقان وهذا الامر يجعل من الكون أن يسير بأنتظام وفق قوانين محمكة. بعبارة اخرى أن كلما عرفنا كيف يسير الكون وفق قوانين منظمة كلما انبهرنا بتصميم الخالق لهذا الكون. وهذا عكس حقيقية الوجود في الكتاب المقدس.

***

2- خُلق الكون :

يفسر البرفيسور الدكتور مخلص عبد الحليم(●) كيف خلق الكون؟ وهذا عكس نظرية التوالد العفوي الذي يعتقد بها بعض الفيزيائيين الكونيين.

فنبدأ بالعدم، فالعدم هو اللاشيء، لكن حتى نفسره علمياً نقول العدم ليس عدما بل هو كون الأضداد المتزاوجة والطاقات الخامدة والقوى المتفانية، وهو عالم خالٍ ونظيف من كل شيء وهو أصل كل شيء، هو وجود مطلق شفاف متنظار لا نهائي الأبعاد، ليس له أول وليس له آخر، ومنه انبثقت الطاقة السوداء كانت جامدة حية، المرئي منها واللامرئي، ولكي تتحقق كل هذه الصفات في العدم لابد أن يكون له تركيب خاص، وذلك التركيب يقتضي أن يكون نسيجه موجياً له خصائص معينة، فأمواجه متزاوجة ومتراكبة (متحدة) بطريقة التعاكس بحيث تلغي كل موجة فيه نظيرتها (ضدها وهي موجة أخرى معاكسة لها بالوضع)، أي تلتقي قمة الموجة بقاع موجة اخرى. فيحدث لهما إشباع واكتفاء وتفانٍ. وهذا هو الـــ(العدم) ذي الطاقات المتخامدة والقوى المتفانية. وأمواجه فائقة متعددة الأبعاد

● – مخلص عبد الحليم الريس من مواليد 1945 سوريا، باحث في العلوم ماوراء الطبيعية الفيزيائية، متخرج من جامعة دمشق والقاهرة ولندن وموضوع تخصصه فيزياء الجسم الصلب وأشعة ليزر وتطبيقاتها – جامعة بيدفورد– جامعة لندن، له العديد من المؤلفات في الفيزياء.

وتحمل طاقات الوجود كله. وفي حال التحامها تكون عديمة الأبعاد، أي أبعادها صفر ولا نهائية بنفس اللحظة ولهذا كان العدم شفافاً متناظراً.

عندما صدر الأمر الإلهي بالتكوين "كن فيكون" انتشرت في العدم صيحة التكوين وحدث انشطار لأمواجه الفائقة الساكنة وتقطعت مكونة نقاطاً (مراكز) منفصلة أي حدث لها تكميم وصار لها أبعاداً أخفض مما كانت عليه قبل الأنشطار، وغدا لبعضهما طبيعة مادية (أمواجها كثيفة لها جهة اهتزاز معينة)، ولبعضها الآخر طبيعة ضد مادية (أمواجها كثيفة جهة اهتزازاها معاكس للأمواج الأولى)، ففي الأولى يلتقي قمة موجة بقمة موجة أخرى.

بينما في النموذج الآخر يلتقي القاع بالقاع. ومن هنا نشأت أولى الجسيمات المادية وأضدادها. أو ما يسمى بالكواركات المادية وضدها. وبسبب الحركة تباعدت عن بعضها، ولكن لو صدف وتلاقى احدهما بضده لحدث لهما اتحاد انفجاري وعادا معاً للعدم كموجة فائقة من جديد.

وكوننا الحالي مكون من هذه الجسيمات وتتخذ شكل أوتار عملاقة تدعى بالأوتار الكونية المادية وضد المادية. وسرى هذا المبدأ على كل العدم ومازال سارياً لغاية اليوم، ومنه ظهرت كل موجودات الكون المرئي منها واللا مرئي.

إن أبسط مثال على التكوين هو الوتر المهتز في آلة موسيقية (العود مثلاً). حيث يبدو بشكل خط مستقيم وهو ساكن (يمثل العدم المطلق القديم)، وأثناء إهتزازه يتشكل فيه ما يشبه المغازل المتصلة بعضها البعض (وهذا الشكل يمثل التكوين).

ففي مناطق التكوين يتخلق (مادة، كون، شمس، كواكب، الخلايا العضوية البناءة للأحياء...ألخ).

في حين يمكن اعتبار مناطق الاهتزاز المعدوم فضاءات أثيرية لا مادية ولكنها لا تشير إلى عدم مطلق، بل تشير إلى وجود شيء أثيري محسوس ذي طبيعة موجية محصلتها معدومة لكنها ليست عدماً.

كي يمكن تحقيق مثل هذه الرحلة الخيالية يجب بناء سفينة فضائية بمواصفات ربما تعجز البشرية عن تحقيقها، كأن تعطي طاقة دفع تعادل طاقة النجوم أو طاقة جذب ثقب أسود، ولكن اكتشف حديثاً أنه بالامكان تحقيق مثل هذه الرحلة في عالم الدقائق الصغيرة كالإلكترون مثلاً أو النترون ولربما في ذرة الهيدروجين، وذلك بطرق التبريد الشديد والوصول لدرجة الصفر المطلق، عندها تسحب كل طاقة الإلكترون فيتوقف عن الدوران حول النواة ويسقط عليها فتتعادل شحنتها متحولة لنيترون، ثم يحدث سحب لجميع الطاقات فيها فتنهار المادة وتتحطم على نفسها متحولة لأمواج فائقة وتوعد للعدم كما بدأت أول مرة (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) (1).

---

1 – سورة الأنبياء، الآية 104.

اكتشف حديثاً وجود أنواع عديدة من الدقائق والجسيمات الأولية التي تنبثق باستمرار من العدم ثم يعود إليه لتختفي فيه ثانية، ويتم ذلك الأمر خلال أزمنة غاية في الصغر ومن رتبة (10-15 جزء من الثانية الزمنية الواحدة)، ويتم هذا الانبثاق عبر انفاق كونية أو مسالك دودية، يكون فيها الزمن مطوياً تقريباً (ملغى)(1).

وفي نهاية الكلام، نحن نحتاج هكذا تفسير للخلق تفسيراً فيزيائياً ينسجم مع التطور العلمي الذي حدث في العالم، في حين نجد ان العلوم الإسلامية باقية في مناهجها العتيقة التي لم تجد نفعاً الى حدا ما في الوقت الحاضر وسنوضح ذلك لاحقاً.

لكن هذا العلوم التجريبية والتقنية التي توصلت لها المجتمعات الغربية اثرت عليهم تأثير سلبي من ناحية معينة، وقد ناقشنا ذلك سابقاً من خلال مدرسة فرانكفورت التي انتقدت العقل الأداتي الخاضع للادوات والآلات التقنية، واليوم نجد ان هذا التقدم التقني سلب الجانب الروحي والديني من تلك المجتمعات. وفي هذا الصدد يصرح علي الوردي في ندوة اقامتها مكتبة الروضة الادهمية، في تاريخ 6 مايس الخميس 1993. قائلاً الحضارة الحديثة تجهز الإنسان بالمتاع المادي وتفقده المتاع الروحي، فأوجه الحضارة الحديثة تجدها في السويد، لكن هي اكثر المناطق في العالم يحصل فيها انتحارات ناتجة

---

1 - مخلص عبد الحليم الريس، الطاقات الخفية اللاإنسانية، مصدر سبق ذكره، ص14-16.

عن الكآبة، فأذا ضعف الدين عند الناس تبدأ الكآبة والانتحارات لأن الايمان يعطي طمأنينة اتجاه الكون. فالإنسان يحتاج الى الدين كما يحتاج إلى الغذاء، فالغذاء للبدن والدين للروح.

ويقول علي حرب (إذا كانت الحضارة الحديثة قامت حسب زعمها على العقل، وانتهجت العقلانية طريقاً واتخذها مذهباً، فقد تحول العقل في هذه الحضارة إلى معتقد جامد ونسق استبدادي، بل امسى يعبد وفكرة تقديس، فحل بذلك محل الاله وأفصح من حيث لا يعقل عن رغبة دينية خفية، ولعل هذا ما يفسر عودة المقدس والسري واللامرئي إلى ساحة الفكر، فالعقل ليس وحده. هناك فيما وراء العقل أو تحت العقل. فلا وجود إذن لعقل خالص. وقدر العقل أن يجهد على الدوام في التنقيب عن اللامعقول الذي يحيط به ويكتنفه ويقبع فيه لإقامة الحوار معه وإضفاء المعقولية عليه) (1).

***

1 – علي حرب، التأويل والحقيقة، مصدر سبق ذكره، ص98-99.

ثانياً: نقد العلوم الدينية :

3- المناهج والعقائد :

أن المناهج الأسلامية المستخدمة في المسائل العقائدية هي علم الكلام والفلسفة والمنطق. حيث مازال الاسلاميون يعتمدون على الفلسفة الافلاطونية المثلية وقياس المنطق الأرسطي، يقلدون في ذلك فلاسفة الاسلام الأوائل. فمن خلال تجربتي الميدانية في المدارس الدينية وجدتهم ينتقدون الفلسفة السوفسطائية ويتبنون فلسفة المدرسة السقراطية في حين أن العالم تجاوز هذه الفلسفات منذ عشرات السنين وحل العلم محل الفلسفة. لذا ان المناهج الاسلامية قديمة جدا ولم تجدي نفعاً في الوقت الحاضر الى حدا ما، لذا نجد ان المجتمعات الاسلامية مجتمعات مغلقة ومتعصبة ولم تتغير فكرياً بسبب تمسك العلوم الدينية بمناهجها القديمة، فضلاً عن ان القياس المنطقي يجعل من العقل الاسلامي عقل أداتي في حين ان الدين فطرة طبيعية مرنه، هذا المنطق حوّل العقل الديني من مرن الى أداة ثابته وفق قواعد منطقية ثابتة. لهذا السبب وغيره تكونت ظاهرة اجتماعية هي ظاهرة اللادين والالحاد الذين تركوا الدين وتمسكوا بالعلوم الحديثة والفيزيائية منها، هذه العلوم التي قلبت موازين الفكر والنظرة إلى العالم، في حين إن المؤسسة الدينية ما زالت تجادل في الفلسفة اليونانية القديمة وتجادل في الفكر المعتزلي والأشاعري وغيرها من الافكار، فأذا بقيت المؤسسة

الدينية على هذا النهج فسوف تفقد مكانتها شيئاً فشيئاً لذا يجب عليها أن تدارك امرها قبل فوات الأوان.

إن اعطاء الدين الجانب التخصصي هو السبب المركزي، سواء في الدراسة الاكاديمية، أم غيرها، هو الذي أدى الى التابس تصوري بأن الناس لا تستطيع فهم ديناً دون وسيط. لاسيما في ظل افتراض تعقيد المنهج الدراسي "الحوزوي" وهذا الافتراض يتكرس ويتعزز عندما نعود إلى مناهج التعليم الدينية المتبعة في الحوزات العلمية، فقد يكون القول مكروراً بأن هذه المناهج بحاجة إلى مراجعة جذرية، إن يكن تغيراً جذرياً.. وأصبح من المعلوم والمعترف به من قبل معظم اقطاب هذه المؤسسة من الثوريين التغيريين والإصلاحيين بأن سبب تخلف المؤسسة الدينية يعود إلى هذه المناهج، وبأن علم اصول الفقه تضخم بشكل بالغ وشاذ، والأنكى من ذلك أن اعترافاً آخر يرافق هذا الاعتراف، وهو أن هذا التضخم "لا ثمرة عملية من وراءه" وأن دراسته بما تراكم منه من إنتاج نظري تجريدي تستوعب عمر الفقيه في زاوية من زوايا المؤسسة أو البيت في الدرس والتدريس، بما تترك أثرها العميق البالغ الخطورة لا على وعي الناس بالدين وأثره الاجتماعي فحسب، بل على دور الفقيه الاجتماعي(1).

1 – عادل رؤوف، صناعة العقول بين "التقليد الفقهي" وثقافة التقليد، المركز العراقي للدراسات والاعلام، بغداد، 2007، ص299.

يقول علي الوردي بخصوص المنطق الأرسطي الذي هو أحد المناهج المقدسة في العلوم الدينية "الواقع أن العلوم الحديثة كلها، الطبيعية منها والاجتماعية، لم تستطع أن تنمو هذا النمو العجيب إلا بعد أن بدأ فرنسيس بيكون بثورته المعروفة على المنطق الأرسطي والتراث الفلسفي القديم"(1).

لذا فالبعض نادى بأن معرفة العلوم الحديثة كالفيزياء والرياضيات والكيمياء وغيرها معياراً في تحديد أعلمية المجتهد في الدين، فالملم بهذه العلوم يكون أعلم من فاقدها، والرد على هذا الاجتهاد هو أن الاجتهاد والأعلمية يقومان على أساس علوم بعينها، مثل الصرف والنحو والمنطق والتفسير والحديث والأصول والفقه وما إلى ذلك، وليس على أساس العلوم التي لا صلة لهما بها(2).

لاحظ انهم يعدّون العلوم الحديثة لا صلة بها في الدين في حين انا وجدت ان الفيزياء الكونية لها صلة وثيقة في العقائد والقرآن وحتى في العبادة وسأوضح ذلك في ما بعد.

***

أن العقائد التي تدّرس في المناهج الدينية وتترجم عن طريق الخطاب الديني للمجتمع هي نابعة من الفلسفة والمنطق، ففي المناهج

---

1 – علي الوردي، منطق أبن خلدون، دار كوفان للنشر، بيروت، 1994، ص14.

2 – عادل رؤوف، المصدر السابق، ص174

الدينية في المذهب الشيعي على سبيل المثال يعتمودن في العقائد على كتاب (دورس في العقيد) وهذا الكتاب لم يطرء عليه تغيير منذ سنين فضلاً عن اعتماده على الفلسفة اليونانية في رسم المنهاج الغقائدي، فهم يقسمون المعارف للرؤية الكونية إلى المعرفة التجرييبة والعقلية والتعبدية والشهودية، وهذه المعارف يدرسونها في درس العقائد، لأنهم يتمسكون بالعقائد الدينية اكثر من غيرها، فنلاحظ هم ينتقدون المعرفة التجرييبة حول رؤيتها للكون، أما التعبدية فدورها قليل في معرفة الرؤية الكونية، وكذلك المعرفة الشهودية (العرفانية) تحتاج إلى سلوك عبادي طويل حتى يصل السالك إلى مشاهدات وحقائق كونية، لذا هم يعتمدون على المعرفة العقلية الفلسفية تفسيراً للكون والوجود(1). لاحظ يعتمدون في تفسير الكون على المعرفة العقلية ويضعفون المعرفة التجرييبة، بينما وصلت الفيزياء عن طريق الملاحظة والتجربة الى حقائق مذهلة لم يتوصلوا لها هم في تأملاتهم العقلية.

يقول برتراند رسل أن الفلسفة فرضيات علمية والعلم يحقق هذه الفرضيات، وبالتالي ان المعرفة العقلية القائمة على الفلسفة الذي تربط الكون والمجتمع في الله (العقائد) هي فرضيات يجب تدعيم هذه الفرضيات بالحقائق العلمية الذي توصل أليها علم الفيزياء. علماً أن

1- أنظر: محمد تقي مصباح اليزدي، دروس في العقيدة الأسلامية، ج1، دار الرسول الاكرم(ص)، ط8، 2008، ص47-52.

المعرفة التامة قائمة على العقل والتجربة معاً. فالمعرفة العقلية بدون تجربة ناقصة، والمعرفة التجريبية بدون التفكير العقلي ناقصة.

لذا سنناقش مسألة الفيض الألهي الذي يعتقد فيها المسلمون أن العالم الامكاني (الكون) وما عليه محتاج إلى فيض ألهي مستمر حتى يحافظ على وجوده، فالمعلول يحتاج إلى علته الحقيقية او التامة لكي تفيض عليه المتمثلة بــ(النور الألهي) هذه الفلسفة العقائدية مستمدة من فلسفة الفارابي، فأنظر الى قدم المعارف الدينية، رغم أن هذا الاعتقاد صحيح من وجهة نظري إلا أن معرفته قديمة مقابل العلم الحديث، علماً أن علم الفيزياء فيه ما يدعم المعارف الأسلامية العقلية، فلماذ لا يجددوا مناهجم الدينية حتى يتأقلموا مع التطور العلمي ويكون هناك حوار علمي واسع؟

وفق الفيزياء الكونية يترجم هذا الفيض الالهي من خلال (الطاقة) فكل موجود مادي يستمد قوته من الطاقة الموجودة فيه، علماً أن مفهوم الطاقة جاء بها أنيشتاين وقد أشرنا سابقاً إلى ذلك في الطاقة المظلمة ودورها في عمل الكون.

اما الدكتور مخلص عبد الحليم له رؤية كونية فيزيائية تتلائم مع الفيض الالهي، ماذا يقول؟ (يمكن اعتبار النفق الكوني الحبل السري الواصل بين المشيئة في العدم وكوننا المادي المولود منه بأمر الله، وعبر تلك الأنفاق تمر الجسيمات مادون الكواركات لتنبثق من العدم

بأعداد لا حصر لها في كوننا الرباعي الأبعاد لتشكل الكواركات المادية ومن ثم الجسيمات النووية وأخيراً الذرات، وهذا ضروري لتغذية وترميم الكون وتطوره وأحجام تلك الأنفاق الكونية ودقتها وأعدادها هي من رتبة ودقة وأعداد الجسيمات التي تعبرها، وبالتالي فإن تلك الأنفاق ليست غريبة أو بعيدة عن جسد كوننا المادي، وحتى عن جسدنا نحن، وكلانا ليس مستقلاً عنها)(1).

ويقول في موضع آخر (الشيء الأساسي التي تمتاز بها الأنفاق الكونية هو أنها تمثل البعد الخامس والذي يتصف بخلوة من الزمن تقريباً، وبتحديد أكثر تعتبر تلك الأنفاق فارغة منه تماماً، حيث تجري فيه الأحداث مستقلة تقريباً عن الزمن، وكأن عملية طي وحذف للبعد الزمني تمت فيه)(2).

لاحظ أيها القارئ إلا يدل هذا على الفيض الألهي بطريقة فيزيائية تنسجم مع التطور العلمي في الوقت الحاضر، فأذا جاء شخص وأراد ان يثبت بالمنهج الفيزيائي الحديث بأن الكون وجد عن طريق التوالد العفوي، هل نحن نثبت له بأن الكون وجد عن طريق الخلق بالمنهج الفلسفي؟ هذان طريقان مختلفان، وهذا ما يحصل اليوم بالعالم أن الفرد

---

1 – مخلص عبد الحليم الريس، الطاقات الخفية اللاإنسانية، مصدر سبق ذكره، ص36.

2 – المصدر نفسه، ص34.

اللاديني والملحد يمتلك من هذه العلوم الحديثة إلى حدا ماً، بينما رجل الدين نادراً ما يمتلك من هذه العلوم.

1- القرآن والكون :

من تصريحات المفكر الأسلامي المعاصر كمال الحيدري، عندما يكتشفون علماء الغرب نظريات علمية وتؤخذ نجاحها على أرض الواقع يقول العقل الأسلامي هم لم يأتوا بشيء جديد بل هذه النظريات ذكرت في القرآن، واقعاً هذا الجهل بعينه، فأذا كانت هذه النظريات مذكورةٌ في القرآن لماذا لم تكتشفها أنت ايها المسلم؟ لمذا تنتظر غيرك يكتشفها؟ ومن ثم تأتي أنت تسلب جهد وفكر الباحث وتنسب اعماله إلى القرآن. علماً أن المكتشف لم يقرأ القرآن بل من خلال ملاحظته التجريبية توصل إلى الحقائق العلمية.

أذن، كيف نواجه هذه المشكلة؟ أرى أن على المجتمع المسلم تقبل وقراءة ودراسة هذه النظريات العلمية الطبيعية منها والإنسانية ومقارنتها مع العلوم الدينية والقرآن. وهذا الأمر يقع على عاتق المثقف الديني الذي يكون خارج المؤسسة الدينية، ومن المؤسف لم يوجد مثل هذا المثقف في المجتمع الأسلامي إلا ما ندر وهذا ما أكده عادل رؤوف في كتابه (عراق بلا قيادة)، هذا المثقف يكون دوره وسيطاً بين المؤسسة الدينية والمجتمع الاسلامي وبين التطور العلمي والحداثوي التي توصلت إليها المجتمعات المتقدمة وبهذا هو ينتشل

الأمة الأسلامية من أزمة المعرفة والانغلاق وجعل العقل الاسلامي محرراً من قيوده عن طريق تلاقح الثقافي والفكري بين الشعوب.

لذا، أن من مشكلات المدارس الدينية هي هجرها للقرآن فلم يكن هناك درس تفسير أو تأويل للقرآن، وأن كان فهو درس ضعيف وفق تأويل قديم، أو يكتفون بحفظ القرآن فقط دون المعنى وهذا عند مدارس أهل السنة وهذا يعدّ أيضاً هجراً للقرآن من نوع آخر.

الأمر المثير هنا ليس لمفارقة واحدة.. بل مفارقات، إذ أن أكثر مواد "المنهج التدريسي الحوزوي" اعتمدت منذ قرون من الزمن، ولا تزال هي هي لم يطرأ عليها تغيير، ولم يصار إلى إعادة النظر فيها، رغم تحولات الزمن وأطواره وحاجات كل مرحلة وطور... حتى الأمر يتجاوز "القرآن الكريم" كمصدر إلهي مقدس. فالمنطق الأرسطي على سبيل المثال هو أحد المواد المدروسة ضمن المنهج المدرسي، لم يطرأ عليه أي طارئ منذ قرون، ولا يزال حتى هذه اللحظة يمثل مادة رئيسية "مرسبة"، بسببها لا يستطيع الطالب الانتقال إلى مرحلة جديدة... في حين أن القرآن الكريم لم يدرس... ويكتفي بـــ(500) آية أو يزيد قليلاً منه لـــ"الاجتهاد".. أن مثل هذه المفارقة توضح إلى حد بعيد الالتصاق بالماضي المعرفي والارتقاء به إلى حاكم للعقل ودوره في الحاضر.. والمفارقة الثانية هو أن "المنطق" الذي سقناه مثالاً هنا، لم يكن وليداً من رحم العقل الاسلامي.. بل هو معرفة مستوردة

تندرج تلقائياً في إطار التقليد، لكن ليس كباقي أنواع التقليد.. إنما هو تقليد لعقل يوناني مضى عليه أكثر من ألفي وثلاثمائة عام.. حيث كتبه آنذاك أرسطو طاليس. وهذا التقليد – كما اشرنا– متحكم بالعقل "الفقهي" و"المرجعي" بما يجعله بعبارة أخرى غارقاً في تقليد التاريخ اليوناني و"ليس الحاضر اليوناني أو الغربي".. فليتصور القارئ معي حجم المأساة المرعبة الهائلة في واقع المنهج التدريسي الحوزوي، وتركاته على واقع المعرفة الأسلامية!! وليتصور هل يمكن إيجاد ما يسوغ من أن صيحات وصيحات قد انطلقت منذ عقود من الزمن حول هذه المسألة.. التي تم تجاوزها والاستخفاف بها؟ لماذا هذا العناد إلى أقصى طاقته على مادة معرفية وليدة تاريخ كتبه شخص يوناني لم يعد له لدى أهل اليونان والرومان والأوربيين من مجال إلا في متحف "التاريخ المعرفي" لديهم؟ هل من المعقول أن نظفر زمن القرآن إلى ما وراء سبعة قرون لنستعير كتاباً ما، يبقى يعيش معنا ويساهم في صناعة عقولنا، ويترك آثاره على منظومة الوعي الاجتماعي لدينا؟(1).

***

هنا نأتي إلى القرآن والكون، سمعت أحدهم يقول اتضح أن هناك فضاء وليست سماء وهو هنا ينتقد القرآن في خضم التطور الفيزيائي

---

1 – عادل رؤوف، صناعة العقول، مصدر سبق ذكره، ص396.

المعاصر، وأرى أنه يخلط بين المصطلحات ومفهومها اللغوي والفكري وما إلى ذلك.

أن السماء في اللغة يقال لكل ما ارتفع وعلا قد سما يسمو. وكل سقف هو سماء (1)، في حين الفضاء في اللغة المكان الواسع من الأرض، والفعل فضا يفضو فضوا، فالفضاء مشترك بين الحدث والمكان (2).

ومن خلال المفهومان اللغويان نستفهم أن كل شيء خارج الأرض ويعلى عليها يعتبر سماء وهذه السماء تشمل النجوم والكواكب والاقمار، لأن الأنسان عندما يشاهد السماء سوف يرى هذه الكواكب والنجوم في السماء، كذلك سقف البيت كل ما عليه هو سماء، وبما أن القرآن جاء يخاطب عقول البشر، وهذه البشر تسكن في الأرض فتعّد كل ما في الكون سماء ما عدا الأرض، لأنها يسكنها البشر فلا يشعرون بها انها في السماء، كالذي يسكن في المريخ فهو يشعر بأن الأرض في السماء ولا يشعر أن المريخ في السماء.. فتأمل.

أما الفضاء حسب المفهوم اللغوي فهي المساحة الفارغة بين الكواكب والنجوم والمجرات وتكون وظيفتها ربط هذه الكواكب

---

1 – ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، ح س، دار الحديث، القاهرة، 2013، ص696.

2 – المصدر نفسه، المجلد السابع، ح ف، ص122.

والمجرات وفق القوانين الكونية، أذن الفضاء مفهوم كوني فيزيائي خارج عن شعور الافراد، بينما السماء مفهوم يختص في أذهان البشر وما يشعرون، فعندما نقول سماء فشعورك يذهب إلى الأعلى، ولكن عندما تقول فضاء فشعورك يذهب إلى الكون برمته.. فتأمل أيضاً.

هل القرآن حل هذه الأشكالية؟ هناك آية تقول (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) (1). كيف تفسر المؤسسة الدينية هذه الآية؟، تعتمد المؤسسة الدينية (●) في تفسيرهم للقرآن على كتاب الامثل والطبري والطباطبائي في تفسير القرآن، يقول الطباطبائي في كتابه (الميزان في تفسير القرآن).(الحبك بمعنى الحسن والزينة، وبمعنى الخلق المستوي، ويأتي جمعاً لحبيكة أو حباك بمعنى الطريقة كالطرائق التي تظهر على الماء إذا تثنى وتكسر من مرور الرياح عليه). وهو يرجح تفسير الآية بالطرائق، فيقول (ولعل المعنى الثالث أظهر لمناسبته لجواب القسم الذي هو اختلاف الناس وتشتت طرائقهم)(2)، وفي بحثه الروائي حول تفسير الآية، يقول (وفي الدر المنثور أخرج ابن منيع عن علي

---

1 – سورة الذاريات، الآية 7.

● – وهنا اعني المؤسسة الدينية الشيعية كوني أنا احد افراد المجتمع الشيعي وأعيش في وسطهم، وهذا لا عيني أن المؤسسة الدينية عند أهل السنة أكثر حداثوية بل كل المؤسسة الدينية في الأسلام تعاني من قدم مناهجها.

2 – محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج18، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1997، ص370.

بن أبي طالب أنه سئل عن "والسماء ذات الحبك" قال: ذات الخلق الحسن)(1).

أرى أن التفسير لا يمت للآية بصله فأما عن الخلق الحسن فكل المخلوقات خلقها حسن، وأما عن قول علي بن ابي طالب فهو حَدّث الناس على قدر عقولها آنذاك، لكن المشكلة أن تفسير الآية بقى على العقل الماضي لم تتأول الآية بشكل جديد تتناسب مع روح العصر، أما عن طرائق الناس فالآية مختصة في السماء وكيف خلقت؟ وليست بالتشتت والاختلاف في طرائق الناس. فهذا التفسير قديم ولم يجدي نفعاً الآن وفق المنظور الفيزيائي الحديث، فلنطرق باب الفيزياء في تفسير هذه الآية والقارئ سوف يفهم إي تفسير اقرب إلى الواقع.

يفسر مخلص عبد الحليم هذه الآية من منظور فيزيائي، يقول (...يدعي العلماء أن كوننا ذي طبيعة رغوية إسفنجية ومتغيرة المعالم، وسبب هذا التغير في معالم صورته ومظهره هو انطباع أحداث وفعاليات الكون الحركية والطاقية فيها. أي أن النسيج الكوني يتموج ويتحرك ويتشوه كأنه الكائن الحي، وتتطور تلك التشوهات الكونية وتلتف مشكّلة شبكة من أخاديد وأنفاق متداخلة ومعقدة، تدعى بالأنفاق الكونية والغريب أن أفلام الخيال العلمي الغربية الحديثة تتضمن الكثير من تلك الأنفاق الكونية، والأكثر غرابة أنها مذكورة

1 – المصدر نفسه، ص374.

بطريقة إعجازية في القرآن الكريم "والسماء ذات الحبك"، والحبك كما جاء في التفسير هي الأنفاق والممرات الكونية.

وعدد الممرات التي ذكرت فيها أبواب السماوات والمعارج في القرآن كثيرة جداً (1). والأنفاق الكونية قد مر ذكرها سابقاً.

لذا لن يفهم الإسلام على حقيقته، من يجهل الحقائق التاريخية، وحقائق الكون الفيزيائية. من هذا المنطلق كان المنهج العلمي في القرآن الكريم، هو السبيل لمعرفة الحقيقة.

على قاعدة ان التدبر والملاحظة الواعية هي أول أسس في المنهج العلمي، وهي من أهم الأسس، كما هي أول طرق المعرفة، وهي لا تخص العلماء فقط. إنها فطرة إليهة، فطر عليها الإنسان، فالحيوانات تلاحظ أيضاً، ولكن لا تتدبر ما حولها، ولا تعي ما وراء الظاهرة. (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) (2).

إن صيغة الأمر الإلهي (انظروا) وأداة الاستفهام (ماذا؟) يؤكدان أن النظر إلى السموات والأرض، لا يحقق أهدافه إذا لم يبحث الإنسان في محتوى السماوات الأرض، ويكتشف الحقائق. إنها نظرة فلكية إلى الكون. وفي الآية دعوة صريحة إلى الاهتمام بعلم الفلك،

---

1 – مخلص عبد الحليم الريس، مصدر سبق ذكره، ص33-34.

2 – سورة يونس، الآية 101.

والجيولوجيا، وهما يبحثان في السموات والأرض، ويكشفان لنا ماذا فيهما. وماذا عن الحياة؟ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (1).

إنها ملاحظة من درجة أخرى (سيروا) أي ابحثوا، وتجولوا، ونقبوا في الأرض، فانظروا كيف؟ وهنا لم ترد (ماذا) بل جاءت أداة الأستفهام (كيف) وهي للبحث عن آلية الظاهرة الكونية، وطريقة عملها وفي هذه الآية دعوة صريحة، للبحث عن أصل الحياة، وكيف نشأت. ولا يتحقق الهدف بالملاحظة العابرة للأحياء، كما يلاحظها عامة الناس. إن الاهتداء إلى أصل الحياة يتحقق بالملاحظة أولاً، وبالاختيار والتجربة ثانياً، وبدراسة آثار الحياة القديمة (المستحاثات) ثالثاً، ولذلك فإن لفظة (سيروا) تتضمن البحث المتواصل والتنقيب في مواقع مختلفة. وهذا ما يفعله علماء اليوم.

إن سر الحياة لم يكشف بعد، ما عرف هو مظاهر الحياة المعروفة كالحركة والتغذية والتنفس والإطراح والتكاثر، ولكن كيف بدأت الحياة؟ تلك مسألة لم تحل بعد على الصعيد العلمي.

هناك دعوة تجد قبولاً وانتشاراً في الأوساط العلمية تطالب بحقيقة المفهوم المحوري في الآيديولوجيا السائدة، آيديولوجيا الحضارة الإسلامية، والمفهوم المحوري عندها هي الإيمان بالله الواحد الخالق.

---

1 – سورة العنكبوت. الآية 20.

ويعتبر هذا الإتجاه أن التسليم بتلك الحقيقة مهم، لأنة يلعب الدور نفسه الذي لعبته الآيديولوجية الغربية المضادة، والتي وضعت الإنسان في مركز المجتمع والكون، بدلاً من الله تعالى وفق عقيدة التوحيد الأسلامية(1). والسؤال: وما هدف القرآن الكريم من البحث في أصل الحياة؟ (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)(2).

ثمة مشكلات فلسفية وعلمية لم يتوصل الفلاسفة والعلماء إلى حلها، بغياب الإيمان وهي ثلاث مشكلات أساسية:

مشكلات الوجود: (الكون) وهل هو أزلي أم مخلوق؟ وهذه المسألة حلت بعد اكتشاف الانفجار الكبير الذي بدأ منه الكون.

مشكلة الحياة: كيف ظهرت؟ ولماذا؟

مشكلة الإنسان: الوعي والإدراك النفسي.

للبحث في المشكلة الأولى، أمر القرآن الكريم بالنظر في السماوات والأرض، كما سبق، وللبحث في المشكلة الثانية، أمر القرآن الكريم بالسير في الأرض والبحث في كيفية ظهور الحياة؟

---

1 – عادل حسين، النظريات الاجتماعية الغربية قاصرة ومعادية، دار التنوير، بيروت، 1984، ص269.

2 – سورة العنكبوت، الآية 20.

وللبحث في المشكلة الثالثة، النفس الإنسانية وقواها التي تحقق الوعي والإدراك والفعاليات الذهنية المختلفة، لفت القرآن الكريم الأنظار إلى النفس، إلى الذات ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾(1)، إنها من أبلغ الصيغ في المخاطبة، إن النفس البشرية، ذات الإنسان التي يتعايش معها وبها، لا يعرف من أسرارها شيئاً على الرغم من أنه يلاحظها ملاحظات عابرة. أفلا تبصرون؟ تعني انظروا وتبصروا لاحظوا وتأملوا، وهكذا نرى أن القرآن الكريم، يوجه الأنظار إلى أساسيات المواضيع الفلسفية والعلمية، التي يبحث عن سرها الفلاسفة والعلماء عبر التاريخ.

هل سيصل العلماء إلى معرفة الحق؟ إلى معرفة العلة الأولى لهذا الوجود؟ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (2). إن الربط بين الآفاق والنفس، سيكشف عن نظرة شمولية إلى الوجود، في طبيعته الجامدة وطبيعته الحية، وتلك سمة من سمات التفكير العلمي، شمولية النظرة واليقين، أساس من أسس التفكير العلمي.

ولذلك عدّ كثير من المفكرين أن الربط بين الظواهر الكونية والإجتماعية أساس من أسس التفكير. وهذا الربط نقرؤه في آيات

---

1 – سورة الذاريات، الآية 20-21.

2 – سورة فصلت، الآية 53.

الذكر الحكيم التي تشير إلى الظواهر الكونية. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(1).

فالملاحظة الواعية تقوم على الربط بين الظواهر، ولا تقف عند اللحظة الآنية، فالمعرفة كما نعلم تراكمية، تنتقل إلى الأجيال بالمشافهة والكتابة، وما نعرفه اليوم عن الكون والحياة، جاء بتراكم المعرفة على مدى آلاف السنين. ولهذا كان تأكيد القرآن في أول سورة على القراءة والكتابة، من أجل معرفة ما دونه الأولون وتدوين المعرفة للآخرين، فالأجيال المقبلة والتراكم المعرفي يحصل بأتجاهين:

اتجاه رأسي (عمودي) وهو تطور المعرفة حول النفس الظاهرة عبر التاريخ، التراث. واتجاه أفقي وهو تطور المعارف المختلفة المتعلقة بالظاهرة، أي الترابط بين الظواهر المختلفة والأسباب.

على أن كل الناس يشاهدون الظواهر الطبيعية، وحتى الدواب تشاهد تلك الظواهر، ولكن بالتفكير العلمي، والمحاكمة العقلية، يمكن معرفة الحقيقة. وقد خاطب القرآن الكريم الذين يعقلون ومراده في ذلك استخدام العقل في التفكير ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ

---

1 – سورة البقرة، الآية 164.

وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (1).

أنها دعوة إلى النظر في السموات واستخدام العقل (التأمل الذهني) للوصول إلى الحقيقة، والإيمان بالخالق الذي أوجدها (2).

إن مخاطبة العقلاء وأولي الألباب والمفكرين والعلماء من خلال عرض الآيات الكونية، تأكيد على علمية القرآن والإسلام، فلم يكتف بالعبادة والتشريع فقط، ولكن الهدف الأخير من لفت الأنظار إلى آلاء الله، هو الإيمان بالله والتقوى.

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (3). وأيضاً (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)(4).

في العلوم النظرية كالرياضيات والفيزياء، إذ لم يتمكن واضع الفرضية من البرهان على صحتها، تصبح الفرضية مجرد تخمين واحتمال، لا يؤخذ به، وطرق البرهان عديدة، فهو يعتمد على بديهيات ومسلّمات، لا يختلف عليها اثنان حيث يضع المبرهن

---

1 – سورة النحل، الآية 12.

2 – حسين أحمد شحادة، إجتماعيات الدين والتدين (دراسات في النظرية الاجتماعية الإسلامية)، مركز الحضارة لتنمية الفكر الأسلامي، بيروت، 2010، ص266–268.

3 – سورة النمل، الآية 86.

4 - سورة يونس، الآية 6.

مقدمات تقود إلى نتائج صحيحة، أو يبرهن بفرضية مختلفة، أو معاكسة، ويقد يعتمد على شواهد مماثلة.

وفي القرآن الكريم نماذج من الآيات، اعتمدت على البرهان المنطقي، لإثبات حقيقة كونية، أو إقرار حقيقة علمية(1).

***

3- العبادة والكون :

كذلك الشخص الذي انتقد القرآن من خلال السماء سمعته يقول ما معنى كلامه ان الارض كروية فالتوجه إلى الكعبة قبلة الصلاة لم تكن بخط مستقيم بل سوف ينحي الفرد كلما ابتعد عن الكعبة بسبب كروية الأرض وبالتالي سيكون توجهه للفضاء وليس للكعبة، أما أذا كان الفرد في القطب الآخر من الأرض فستكون الكعبة خلفه وليست أمامه.

وفي نقاش ذلك نقول أن العبادة هي للبشر وبالتالي هي متعلقة في احاسيسهم وشعورهم، فالفرد الذي يسكن في القطب الشمالي يشعر بنفسه مستوي على الأرض، والفرد الذي يسكن في القطب الجنوبي أيضا يشعر بأنه مستوي على الارض، لكن هل هما مستويان بالنسبة للكون؟ الجواب كلا. وبالتالي ان الفرد هو مستوي وغير مستوي في

---

1 – حسين أحمد شحادة، المصدر السابق، ص269-270.

اللحظة نفسها، مستوي بالنسبة إلى شعوره وهو على الأرض وغير مستوي بالنسبة إلى موقعه في الكون، فنحن لو ننظر الى القمر فسوف نرى أقطاب القمر ونفكر أن القطب الجنوبي مقلوب وأذا كان هناك شخص في هذا القطب سوف يكون مقلوب أيضاً، لكن بالنسبة للفرد ذاته لا يحس بأنقلابه وهذا بفعل الجاذبية والالتواء في النسيج الفضائي.. فتأمل.

لذا عندما يشعر الفرد سواء كان في القطب الشمالي أو الجونبي في الأرض بأنه مستوي ويتوجه إلى الكعبة اثناء الصلاة فهو يشعر بأنه توجهه مستقيم نحوها وهي أمامه والعبادة هي شعور.

أما بالنسبة للكلام الذي يقول أن الكعبة سوف تكون خلف الفرد الذي يسكن في القطب الآخر من الأرض. فحسب أنتشتاين لو قام احد سكان الكون برحلة طويلة جداً جداً وفي خط مستقيم فسوف يكتشف أخيراً أنه قد عاد لنقطة انطلاقه، لكنه معكوس الأعضاء، فاليمين صار يساراً، واليسار صار يميناً. ولو أنه استخدم تلسكوباً قوياً يريه نهاية العالم فسوف يفاجأ بأنه يرى قفاه، أذن كوننا كروي محدب في البعد الزمني وليس له بداية ولا نهاية ولا مركز، وحجمه محدود بدون حدود(1). أذن من المستحيل تكون الكعبة

1 – مخلص عبد الحليم الريس، مصدر سبق ذكره، ص30.

خلف الأفراد المتوجهين لها مهما كان مكانهم في الأرض، بسبب التواء اعضائهم حسب التواء الزمكان وهم لا يشعرون.

اذن ان العلاقة بين الكون والإنسان علاقة تبدو متكاملة من جانب ومتناقضة من جانب آخر. وهذا التناقض هو فقط في ادراكاتنا اما بالنسبة للكون فبنائه نسبي في الزمان والمكان. فاننا نعيش في كون غير مدرك بتمامه لعقولنا كون لا محدود نهائياً.

طبعاً هذه الانتقادات الموجه للدين لها فائدة على البشر وهي تحريك العقول للتفكير وأنذار للمؤسسة الدينية أن تعيد حساباتها في معارفها ومناهجها، لأن العبادة أصبحت تكرار تقليدي خاليه من محتواها يمارسها المجتمع كأسقاط فرض ولم يدققوا في معناها وغرضها وعلاقتها في الله والكون.

وبمعنى آخر فإن الدين هو عبارة عن سياحة عملية في الكون وموجوداته، والإنسان واستخلافه والقرآن وتشريعاته، فما يبدو أنه عبادات دينية يؤديها الإنسان، ويعبد الله سبحانه وتعالى من خلالها، لا تنفك أن تكون تشريعات على علاقة عضوية بالعلم، والصلاة مثلاً لذلك في علاقتها بالشمس والقمر والليل والنهار. والكعبة وتاريخ الأنبياء والتاريخ البشري الديني، لو أخذنا آية الصلاة أو عبادة الصلاة آية من أمهات الكتاب... وأردنا ان نلتمس مضمونها العلمي... فأن الذي يقرها ويدقق ويفكر بأبعادها الكلية، فانه سيفهم

القبلة التي يتوجه إليها على أنها تمثل البعد المكاني "الجغرافي" فيها، ومن يفكر بأوقاتها، فانه سيحضر البعد الزماني "التاريخ" وفيما النقطة المكانية التي يتوج أليها المصلي هي بيت الله سبحانه وتعالى الذي شيده إبراهيم أبو الأنبياء"ع"، فهو سيدرك فوراً "أي المصلي" أنه في الواقع يحضر كل الزمن "التاريخ" النبوي في صلاته، ومكانياً "جغرافياً" سيكتشف ان هنالك، أمكنة ألهية نبوية، هي ليس كالأمكنة الأخرى، وبالتالي فأنه سيحضر ويستوعب من خلال صلاته كل "التاريخ الجغرافي" الدينيين وهو "أي المصلي" لو فكر أكثر في الزمن "التاريخ" فليس من الصعب عليه أن يكتشف أنه يرتبط بحركة الشمس والقمر والليل والنهار، إذ على ضوء طلوع وغياب الشمس يؤدي الصلاة، باختصار فانه من هنا سيجد إن هذه العبادة هي على علاقة ليس فقط بالجغرافية الإلهية – النبوية أو التاريخ الإلهي النبوي فحسب، إنما سيحضر الليل والنهار والشمس والقمر، وبالتالي علاقة الأرض بالسماء في ترابط علمي لا ينفك عن علم الفيزياء، فيما لو أردنا التوسع أكثر من ذلك... وهو هو ما نعنيه بارتباط العبادات ذات الهيئة او الشكل التي هي "امهات الكتاب" بالعلم، فالذي يؤدي الصلاة بصورة تكرارية لا مفكر فيه، أو الذي يعتبرها شعائر "لا أهمية لها" والمهم "المضمون الذي لا يشترطها" من مدعي الفكر والثقافة "العلمانية"... هو في الواقع يفكر بشكل سطحي ساذج أو انه مرتبك من الناحية المعرفية، أما الذي يؤدي الصلاة بتأمل وتدبر وتفكر فانه

سيكتشف قوامها العلمي فوراً.. وهذا ما ينطبق على العبادات- الآيات، "امهات الكتاب" أو العبادات ذات الهيئة جميعها، وأية فريضة أو سنة من سنن هذا الدين، وتشريعاته عبر القرآن الكريم، فعلاقته مع العلم هي علاقة عضوية، وعلاقته مع الكون، وخالقه، وموجده هي علاقة علمية أيضاً(1).

1 - عادل رؤوف، صناعة العقول، مصدر سبق ذكره، ص581-582.



الخاتمة

بيّنا في مقدمة هذا الفصل ان هناك تماثل عضوي بين المجتمع والكائن الحي، فالوظائف الذي يقوم بها المجتمع هي تتشابه مع الوظائف الذي يقوم بها الكائن البايلوجي، وهذه ما تسمى بالنظرية البنائية الوظيفية وهي نظرية اجتماعية عصرية، لكن هذه التماثل للمجتمع لا ينحصر بالعضوية فقط بل تتعدى الى المماثلة الكونية وفي هذا الكتاب بينا التماثل بين المجتمع والكون، فالقوانين الثابتة الذي قائم عليها المجتمع هي تتشابه مع القوانين الذي قائم عليها الكون.

إذن ان المجتمع يتماثل مع الكائن الحي كما يتماثل مع النظام الكوني، لكن ان كل من الكائن الحي والنظام الكوني يعملان وفق قوانين قهرية لا إرادية في حين ان المجتمع يقع بين القهرية والإرادية فأما قهرية المجتمع فهي التماثل بين الكائن الحي والكون، وأما الإرادية فالإنسان هو الذي يمتلك الحرية والاختيار الذي يصنع بهما واقعه.

ومن منطلق المماثلة التي بيناها نقول ان الوجود الطبيعي من الكون والمجتمع والكائن الحي يرجع إلى أصل واحد ويعملون وفق وتيرة واحدة رغم الاختلافات الذي بينهم. فهناك وحدة للوجود، وهذه الوحدة الوجودية هو مصطلح فلسفي وديني، فقد نادى الفلاسفة ورجال الدين بأن الوجود يرجع إلى أصل واحد، أو أن الله خلق الوجود على نمط واحد رغم الاختلافات بين الموجودات، لكن هذه الفكرة كانت ميتافيزيقية محظة، فأرسطو اعتمد على مماثلة الوجود في منهجه الميتافيزيقي، لذلك نجد هيدجر في (ميتافيزيقا أرسطو) يحدد فقرة بعنوان (وحدة الوجود ليس بوصفها نوعاً بل بوصفها مماثلة)، واليوم ان العلم الطبيعي والتجريبي قد برهن على هذه الفكرة علمياً، فداروين قد ثبت في كتابه أصل الأنواع ان الكائنات الطبيعية ترجع إلى أصل واحد، في حين ان الفيزيائيين والفلكيين برهنوا على أن تأسيس الكون يرجع إلى الانفجار الكبير، أما المجتمع هو الآخر يرجع إلى ذكر وانثى وبث من خلالهما مجتمعاتٌ كثر. وان كل من الاجتماعيين والفيزيائيين يحاولون ان يجدوا نظريات موحدة للمجتمع والكون ورغم ان هذه المحاولات لم تنجح لكن هذا يعني ان فكرة وحدة الوجود هي

فكرة وجودية وانسانية يسعى الإنسان الى تحقيقها بالطرق الدينية أو الفلسفية أو العلمية.

وهذه الوحدة الوجودية قد خُلقت وفق معادلة دقيقة وتقنية، وأن أي خلل يحدث في نظام الوجود يؤثر على باقي الموجودات الاخرى، هذا التأثير يقع خارج مدركات البشر فهم لا يشعرون به، فقط الذي يعرف الله ويفهم ابعاد الكون والطبيعة والمجتمع يشعر بهذه التأثيرات.

يقول جلال الدين الرومي:

إذا أخرجت ذرة واحدة من مكانها ينهار جميع العالم من أصله

وهذا يعني أن العالم قد خلق وفق معادلة دقيقة، ولأجل غايه وهدف محدد، وأنا الذي لي مثل هذه الرؤية الكونية للكون، عليّ في كل خطوة، وفي كل عمل، أن أبحث بدقة لأرى هل أن هذه الخطوة قد خطوتها أو سأخطوها كما ينبغي أم لا؟ لأني عضو وعنصر من هذا العالم الكبير ايضاً، العالم الكبير الذي وضعت كل ذرة من ذراته، وفق حساب دقيق ومعادلة دقيقة، وفي المكان الذي يجب أن تكون فيه... ماكنة عظيمة.

وبالتالي من لا يعتقد أن الكون وما فيه مترابط كترابط اعضاء الجسد أو كترابط ماكنة آلية فأذا عطل شيء معين منها أثر على الاشياء الآخرى، أو أذا مرض عضو من الجسد تداعي باقي اعضاء الجسد معه. من لا يدرك الكون وما فيه من طبيعة ومجتمع بهذه الصورة، فلم يدرك أن للكون شعوراً، ولم يدرك ان للكون هدفاً، وبالتالي أن الصراعات والمآسي والحروب التي تحدث بين البشر على مر التاريخ الاجتماعي لها آثر سلبي على عمل الكون، لأن الوجود قائم على ثلاثة، الله خالق الوجود والكون والأنسان، وبالتالي ان الله يحدث الاوامر في الوجود والكون وفق ما تتوصل أليه الحرية والاختيار والارادة التي منحت للأنسان. فالله كل يوم له فيه شأن في الوجود والكون حسب الانتخاب التي تنتخبهُ البشرية وفق الحرية والارادة الممنوحة لهم. فأذا انتخبوا الخير فتتوافق كل ابعاد الكون مع بعضها، أما اذا انتخبوا الشر فتتنافر كل ابعاد الكون، لكن هذا التنافر لا نشعر به، لذا وفق السنن التاريخية ان البشرية تتجه نحو المستقبل اتجاه وحودي وعالمي وفق نظام عالمي عادل، وأذا تحقق هذا الاتجاه في المستقبل فسوف يكون هناك توفق مع حرية البشر وقوانين الكون والطبيعة، فيمنح الله للبشرية السيطرة على الكون والطبيعة. ويتحقق الغرض والهدف والغاية المرجوة للكون وللبشرية.

المصادر والمراجع

المصادر العربية:

1. القرآن الكريم

2. ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، ح س، دار الحديث، القاهرة، 2013.

3. أحمد برقاوي، كوميديا الوجود الإنساي، التكوين للتأليف والنشر والتوزيع، دمشق، 2009.

4. إس. سى. دوب، التغير الاجتماعي، ترجمة: د. عبد الهادي الجوهري، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1985.

5. اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2008.

6. إميل دور كهايم، الانتحار، ترجمة: حسن عودة، الهيئة السورية العامة للكتاب، مكتبة الاسد، دمشق، 2010.

7. أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة: د. فايز الصيّاغ، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2005.

8. انتوني غيدنز، الطريق الثالث (تجديد الديمقراطية الاجتماعية)، ترجمة: احمد زايد. محمد محي الدين. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010.

9. أيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة: د. محمد حسن غلوم، سلسلة عالم المعرفة.

10. باول ديفز، القوّة العظمى، ترجمة: ميادة نزار، وزارة الثّقافة والإعلام، كتاب علوم المترجم، العراق، 1989.

11. برايان غرين، الكون الأنيق، ترجمة: د. فتح الله الشيخ، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2005.

12. برتراند رسل، تاريخ افلسفة الغربية، ج1، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012.

13. برتراند رسل، هل للإنسان مستقبل، ترجمة: علي حيدر سلمان، شركة التايمس للطبع والنشر، بدون تاريخ.

14. جمال محمد أحمد سليمان، مارتن هيدجر (الوجود والوجود)، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2009.

15. جوزيف ستالين، الماديّة الدياليكتيكيّة والماديّة التاريخيّة(النظريّة الفلسفية العامّة لتطوّر الكون والمجتمع)، ترجمة: خالد بكداش، منشورات دار البديع، ط2، 1959.

16. حسن عجمي، السوبر حداثة (علم الأفكار الممكنة)، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 2005.

17. حسين أحمد شحادة، إجتماعيات الدين والتدين (دراسات في النظرية الاجتماعية الإسلامية)، مركز الحضارة لتنمية الفكر الأسلامي، بيروت، 2010.

18. حيدر ابراهيم علي، التغيير الاجتماعي والتنمية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1982.

19. روجر بنروز، ستيفن هوكنيغ وآخرون، فيزياء العقل البشري والعالم من منظورين، ترجمة: عنان علي الشهاوي، كلمة وكلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2009.

20. روديجر بوبنر، الفلسفة الألمانيّة الحديثة، ترجمة: فؤاد كامل، دار الثّقافة للنّشر والتوزيع، القاهرة، بدون تاريخ.

21. ستفين هوكنغ، موجز تأريخ الزّمن، ترجمة: باسل محمّد الحديثي، دار المأمون، ط1، العراق، 1990.

22. السيّد الحسني، نحو نظريّة اجتماعيّة نقديّة، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1985.

23. عادل حسين، النظريات الاجتماعية الغربية قاصرة ومعادية، دار التنوير، بيروت، 1984.

24. عادل رؤوف، صناعة العقول بين "التقليد الفقهي" وثقافة التقليد، المركز العراقي للدراسات والاعلام، بغداد، 2007.

25. عادل رؤوف، عراق بلا قيادة (قراءة في أزمة القيادة الإسلامية الشيعية في العراق الحديث)، المركز العراقي للإعلام والدراسات، سوريا، 2004.

26. عبد الرحمن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.

27. عبدالودود رشيد محمد، شهادة الكون، بدون مكان طبع، 1990.

28. عطيات محمد أبو السعود، فلسفة التاريخ عند جامبا تيستا فيكو، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006.

29. علاء جواد كاظم، بنية العقلية العراقية (دراسة تأويلية في الانثروبولوجيا المعرفية)، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، 2012.

30. علي الوردي، لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث، ج5، دار الراشد، ط2، بيروت، 2005.

31. علي الوردي، منطق أبن خلدون، دار كوفان للنشر، بيروت، 1994.

32. علي حرب، أصنام النظريّة وأطياف الحريّة (نقد بورديو وتشومسكي)، المركز الثّقافي العربيّ، المغرب، 2001.

33. علي حرب، التأويل والحقيقة (قراءات تأويليّة في الثّقافة العربيّة)، دار التنوير، بيروت، 2007.

34. علي وتوت، الدولة والمجتمع في العراق المعاصر، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، 2004.

35. علي وتوت، منهج سوسيولوجيا السّياسة، مادة تدرّس لمرحلة الماجستير في علم الاجتماع، كلية الآداب- جامعة القادسيّة.

36. غادة الإمام، جاستون باشلار (جماليات الصورة)، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2010.

37. فارح مسرحي، الحداثة في فكر محمد أركون، منشورات الإختلاف، الدار العربيّة للعلوم- ناشرون، الجزائر، 2006.

38. فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة: د. فؤاد شاهين وآخرون، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1993.

39. فردريك أنجلز، نصوص مختارة، ترجمة: وصفي البني، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق، 1972.

40. فضيل أبو النصر، الإنسان العالميّ (العولمة والعالميّة والنّظام العالميّ العادل)، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 2001.

41. فريال حسن خليفة، نقد فلسفة هيجل – كيركجورد – فويرباخ – ماركس، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006.

42. كمال بومنير، النظرية النقدية لدرسة فرانكفورت (من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث)، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010.

43. م. آرثر فندلاي، على حافة العالم الأثيري، ترجمة: احمد فهمي أبو الخير، ط3، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1945.

44. مارتن هيدغر، التقنية، الحقيقة، الوجود، ترجمة: محمد سبيلا وعبد الهادي مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1995.

45. مجدي عزالدين حسن، من نظرية المعرفة إلى الهرمينوطيقا، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، 2014.

46. محمد باقر الصدر، اقتصادنا، (انتشارات دار الصدر) مركز الأبحاث والدّراسات التخصصيّة للشهيد الصدر (قده)، إيران- قم، ط2، 1431.

47. محمد تقي مصباح اليزدي، دروس في العقيدة الأسلامية، ج1، دار الرسول الاكرم(ص)، ط8، 2008.

48. محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج18، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1997.

49. محمد رضا المظفر، المنطق، ج2، ط9، دار الغدير للطباعة والنشر، من دون مكان طبع، 1434هـ.

50. حمد عابد نجابري، ال ن ال ياسي العربي (محدد ته وتجلياته، مركز دراسات الوحدة العر ية، بيروت، 2010.

51. محمد محمد صادق الصدر، اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني (مو عة الامام المهدي(عج))، مؤسسة ر الحجة(عج) للثقافة، مطبعة ستارة، إيران، 2006.

52. محمد مهدي الآصفي، حقيقة الحريّة. من دون مكان طبع وتاريخ.

53. محمد ياسر الخواجة، المعجم المعاصر في علم الاجتماع. دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، 2016.

54. مخلص عبد الحليم الريس، الطاقات الخفية اللاإنسانية، مكتبة الأسد، دمشق، 2004.

55. مهتدي الابيض، قوى اللاوعي عند الإنسن، دار نيبور نطباعة والنشر والتوزيع، العراق، 2016.

56. ميتشيو كاكو، فيزياء المستحيل، ترجمة: د. سعد الديم خرفان، عالم المعرفة، 2013.

57. نبراس عدنان المطيري، المرأة والتنمية المستدامة (في ضوء مقررات مؤتمر بكين عام 1995)،(دراسة تحليلية اجتماعية لواقع المرأة عراقية)، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، 2005.

58. نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم أبن عربي، ط8، الدار البيضاء، المغرب، 2008.

59. نيقولا تيماشيف، نظريّة علم الاجتماع طبيعتها وتطوّرها، ترجمة: د. محمود عودة وآخرون، ط8، دار المعارف، القاهرة، 1983.

60. اليونيفيم، مفهوم النوع الاجتماعي، الوحدة الاولى، مكتب غرب اسيا، الاردن، 2001.

***

مصادر الانترنت

61. اندماج نووي، وكيبيديا الموسوعة الحرة.

62. توماس مالتوس، نظرية السّكان، وكيبيديا الموسوعة الحرة.

63. جواد بشارة، تطورات الكون المرئي فيزيائياً وثيولوجياً، مقال، الحوار المتمدن- العدد: 5093 - 2016 / 3 / 4 - 16:54.

64. سلسلة المعارف القديمة، ج2، فيلم على اليوتيوب.

الفهرس

مقدّمة ضروريّة

الفصل الثامن: الله والكون



منذ أن كنت طفلا كانت تراودني الكثير من الأسئلة عن الكون، أين تكمن حافة الأرض؟ وهل هذه الحافة هي جدار عازل؟ وماذا يكمن خلف هذا الجدار؟ وكيف نصل إلى السماء؟ وكيف صارت السماء سقفا للأرض؟ وماذا هناك بعد السماء؟.... إلخ، وبقيت هذه الأسئلة الفطرية راسخة في لاشعوري إلى أن أصبحت أقرأ بكثرة وهوس حول الفيزياء الكونية، وأصبحت عندما أتابع تقريرا في هذا المجال أندهش أمام طبيعة الكون ونظامه العجيب. ويصيبني الذهول إزاء كيفية صنع هذا الكون الواسع اللا متناهي المليئ بالأسرار والخفايا والقوى. كما أني أغوص في عمقه أكثر وأتسائل أين نحن وأين المجتمع من هذا الكون؟ نحن لا شيئ أمام كبره، فلماذا تتصارع الدول والمجتمعات بدل تحديد مواقعها في هذا الكون؟ فمن المؤسف أنها بعد اكتشافها لقوى الكون صنعت قنابل ذرية وهايدروجينية ونووية وراحت تهدد بها بعضها البعض وتتلف وتدمر أجزاءا من هذا الكون وهو ما يثبت لما أننا نعيش في زمن الوحشية والبربرية ولكن بشكل صناعي متطور.

لذلك ارتأيت أن أكتب هذا الكتاب الذي هو بين يدي القارئ الكريم حول نشأة الكون ومماثلة المجتمع لنظام الكون ونشأته. وبينت حقيقة معرفة الله من خلال علم الفيزياء وعلم الفلك الحديث وحاولت تفسير الآيات القرآنية التي تخص خلق الكون تفسيرا فيزيائيا وفلكيا. وربطت العقائد والعبادة بالكون من خلال الفيزياء دون الفلسفة.



مهتدي الابيض

بكالوريوس وماجستير علم الاجتماع

صدر له :

اجتماعية التدين الشعبي



دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج العربية – القاهرة – مصر

E-mail : daroktob1@yahoo.com

01144552557

